رامبو

قصة شاعر متشرد

صدقي إسماعيل



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : رجاء النقاش

العدد ٢٢٢ جمادى الآخرة ١٣٨٩ سبتمبر ١٩٦٩

No. 222 — Septembre 1969

مركز الادارة

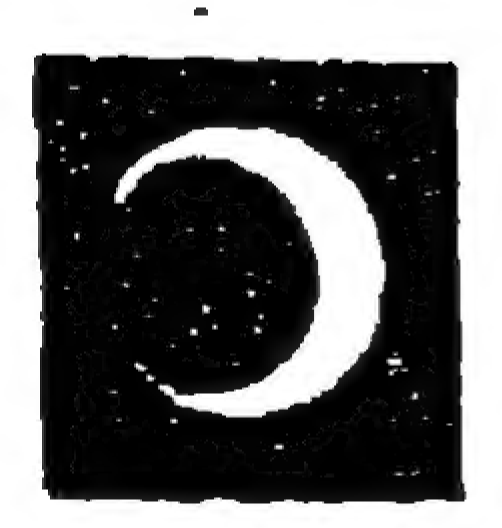
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ـ فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية أو ٤٠ شلنا ـ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج.ع.م) ـ والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغــلاف بريشــة
الفنــان حلمى التونى

صدقي إسماعيل

رامبو

قصة شاعر متشرد

دار الهلال

مقدمة

هـــذه حيـــاة شاعر فذ ، كانت تجربته فى الحياة وفى الادب ، رمزا لعصر باسره . فقد كان من الثائرين على جميع الانظمة والتقاليـــد والاســـاليب الادبية ، التى فرضتها الاخلاق والدين والفن ، والمدنية الحديثة ، على الحياة الاوربية فى أواخر القرن التاســـع عشر ، وكان منذراً بانهيار الحضارة الغربية ، ونضوب معينها ، ومن أجل ذلك كان فى عداد الذين أطلقت عليهم هـــذه الحضارة اسم « المنحطين » لأنهم رفضـــوا كل عرف سائد ، وبشروا بالعودة الى تجربة الانسان الفردية ، بكل ما فيها من فضـــائل وشرور ، من عنصر روحى سام ، واستسلام متوحش للحواس ، محاولين ايجاد قاعدة جديدة لحياة الانسان فى هذا العصر ، تقوم على عفوية الافراد ، وايحاءات نزواتهم وضمائرهم .

وعلى الرغم مما رافق هـــذه المحاولة من انهيـــار اخلاقى ، وانكار للقيم الروحية ، واستهتار بكل عرف اجتماعى ، فان مما يشفع لأصحابها انهم كانوا نماذج صادقة مخلصة فى ثورتها ، وانهم اعطوا وجودهم كله لقضية عصرهم ، ومصير حضارته ، ودفعوا حيـــاتهم ثمنا لقضية الانسان المعاصر .

هذه الناحية من حياتهم جديرة بأن تجعلهم موضع

اهتمام كبير لنا ، نحن العرب ، فى وقت يبـــدأ فيه شعبنا اولى خطواته ، فى طريق نهضة عظيمة ، يقدر لها أن تعيد للانسانية فتوتها وعنفوانها ، بعد ان انهك قواها الغرب . كما ان اعتماد هذه النهضة المتحفزة ، على وعى الافراد ويقظة ضمائرهم ، وصدق تجاربهم ، فى ظروف اجتماعية دخيلة ، نعانى وطأتها ، لما يزيد فى قيمة التعرض لمثل هذه النماذج الثائرة ، التى كانت وما تزال جيـــل الفداء ، فى كل مرحلة من حيـــاة الانسانية ...

وثمة ملاحظة تتعلق برامبو ، بصـــورة خاصـــة ، كشـــاعر كبير قـــدر له أن يكون من مؤسـسى المذهب الرمزى فى الادب الاوربى ، هى الاشــــارة الى الضجة التى ما تزال تثار حول قيمة هذا الشاعر ، ولا سيما حول تجربته الصـــوفية . اذ ان عددا من النقـــاد والادباء ، فى الغرب اليـــوم يحاولون رغم اعتـــرافهم بعبقرية رامبو الادبية ، ان يجدوا فى قصة نبوغه المبكر، وانقطاعه المفاجىء عن الشعر ، وقصة الهامه العجيب ، نوعا من الشعوذة فى حين تعتبر الـكثرة هذا الالهام ، شيئا شبيها بالنبوة ، مستمدين من اخلاص رامبو ، فى تجربته الصوفية ، وصدقه فى التخلى عن الكتابة ، شـــواهد على ذلك ، معتبرين اياه فى مصـــاف كبار الشـــعراء والفلاســـفة كهلدرلن ونوفاليس وريلكه ، مجتهدين فى تفسير كلمة كان يرددها هى : « لم اكن انا الذى يكتب بل كان يملى على » ...

على ان هذا وجه آخر لهذا الشاعر ، قد يكون من الصعب التعرض له كما ينبغى ، خلال الكتابة عن حياته الغريبة ، لأن عشرات الدراسات التى كتبت عنه حتى

الآن ، لم تستطع استنفاد حقيقة عبقريتـه ، كما ان صعوبة نقل اشعاره الرمزية الى العربية ، لغموضها ، والتباس معانيها ، وغرابة عبـاراتها ، تكاد تجعل من المستحيل الاحاطة بحقيقة رامبو من خـلال حيـاته وأدبه .

ولا بد ، أخيرا ، من الاشارة ، الى أن المصـادر الرئيسـية لهذه الصـفحات ، هى المجموعة الـكاملة لأشعار رامبو ونثره ، وحياة رامبو لجان مارى كاريه ، ومجموعة رسائله ، وكتيب رامبو أبو الوجودية ، لجاك ريفيير ، والمجموعة الـكاملة لأشعار فيرلين ، وما كتبه فرانســوا بورشـيه والاديب فرانسيس كاركو عن « فيرلين » ، وبعض التحقيقات والدراسات التى نشرت فى صحف فرنسية شتى ، وثمة اشارة أيضاً الى أننى حاولت الاحتفاظ بطابع الرمز والغموض أحيانا ، لمـا ترجمت من بعض أشعاره ، وبصورة خاصـة ، قطعـه النثرية فى الاشراقات ، وفصل فى الجحيم ، لأن الاحتفاظ بهذا الطابع الذى يتسم به النص الفرنسى نفسه ، قد يكون أكثر امانة وصدقا فى التعبير عن هـذا الشاعر الطفل الذى كانت حياته نفسها ايماءة ورمزا ...

صدقى اسماعيل

رامبو الشاعر

« في الغابة ، كان عصفور يستوقفكم
بتغريده ويضرج وجهكم بحمرة الخجل »
رامبو ـ الاشراقات

١ - طفولة خارقة

« فتحت عيني على نافذة بيضاء .»
رامبو - الاشراقات

نحو النور

« .. عندما استيقظ كان العالم فى الظهيرة »
رامبو ـ الاشراقات

فى خريف عام ١٨٥٤ كانت شارلفيل تشهد تصدع اسرة صغيرة فى منزل معتزل من أحد أحيائها الجميلة . وشارلفيل مدينة قديمة فى مقاطعة « الآردن » بفرنسا تقع على نهر « الموز » وتحيط بها حقول واسعة تمتد على ضفتى هذا النهر الصغير ، وقد عرفت هذه المدينة بروح المحافظة والتدين والتعصب للتقاليد الموروثة ، وكانت هذه الروح تتمثل بكل قساوتها فى نفس « فيتالى كويف » ، وهى امرأة جميلة فارعة القوام ، تتصف بالعناد والكبرياء ، تزوجت منذ سنوات بضابط فى المدفعية من ليون ، هو الكابتن رامبو ، ينحدر من أسرة بورغونية عرفت بحب المغامرة والخمر والنساء ، شأنمعظم سكان مقاطعة «بورغونيا» بلاد الشمس والنبيذ ، وعلى الرغم من ان هذين الزوجين كانا قد أنجبا ولدا ، هو « فريدريك رامبو» ، فان تنافر مزاجيهما جعل حياة هذه الأسرة سلسلة من المشاحنات والمنازعات ، انتهت فى هذه السنة ، بعودة « فيتالى » مع ابنها الصغير ، الى منزل ذويها ، فى الشارع الرئيسى من شارلفيل .

والحق ان الكابتن رامبو ، كان رجلا لا يعرف الاستقرار . كان حب المغامرة يجرى فى دمائه ، وكان

قد خاض كثيرا من الحروب ، ورقى الى رتبة كابتن فى عهد « دوق دومال » لشجاعته واقدامه ، وكان قبل زواجه قد اشترك فى حرب الجزائر مع قناصة « أورليان » واستغرق بعد عودته الى فرنسا ، فى حياة عربدة واستهتار فى طلب المسرات ، لم يثنه عنها زواجه ،

وجو اسرته الجديد ، وكانت طباع المحارب فيه تصطدم ابدا بهدوء « فيتالى » ، وتعصبها الدينى الصارم . فكانت ابسط كلمة توجهها اليه منتقدة سلوكه تغضبه وتحنقه . وكانت اتفه الاسباب تثير شجارا عائليا يهجر الزوج بعده المنزل اياما .

وخلال القطيعة ، فى خريف هذا العام ، ١٨٥٤ ، وضعت فيتالى ابنها الثانى جان ارثر رامبو ، فى ٢٠ تشرين الاول . وكان فى ولادة هذا الطفل امر عجيب لفت الانظار ، اذ يروى انه عندما ابصر النور التفت فورا نحو نور الشمس المنبعث من خصاصات الباب ،

وجعلت عيناه الواسعتان تحدقان بالباب المغلق . وبينما كانت القابلة تلفه ، احتاجت الى بعض الاقمطة ، فوضعته على مسند صغير على الارض ، وذهبت . فما كان منه الا أن نزل عن المسند ، وزحف ، وهو يضحك ، ويتطلع الى الباب ، حتى وصل الى الدرج ، فوقف يتأمل الفضاء البعيد ...

وكان الطفل ذا عينين زرقاوين يقظتين ، وجبهة واسعة منتفخة ، وشعر كستنائى لامع ، وانف قصير، فيه خنس ، وفم مرهف مكتنز ، وكلها صفات ورثها عن أبيه ، وسنرى انه ورث من صفات هذا الأب ايضا ، حب السخرية والانطلاق فى القول والسلوك ، وعدم الاستقرار ، والفضول ، وحب الاسفار والتنقل والميل

الى التعرف على الشعوب وتعلم اللغات .

أما عن أمه فقد ورث قوامه الفارع ، ويديه الطويلتين ، ووجنتيه الصلبتين ، وصوته المؤثر . وورث من صفاتها الكبرياء ، والصلف ، والعناد المتوحش ، وارادته الصلدة.

ولكن ما ورث عنهما معا ، كان أقوى ما ورث ، وأبعد أثرا فى حياته . لانه جمع كل ما فى نفسيهما من تصارع وتنافر ، فقد كانت نفسه ، منذ البدء ، صورة لهذا التناقض بين الغريزة والروح ، بين الجسد والصوفية .

ونشأ ارثر رامبو ، نشأة هادئة ، محاطة بحرص أمه وحنانها . وعلى الرغم من أن أباه كان يعود الى المنزل بين الحين والآخر ، مؤثرا حياة الاسرة ، فان الطفل لم يكن يعرف منه شيئا ، ولا يلقي منه اى اهتمام وعطف... ولم يكد ارثر يبلغ السادسة من عمره حتى كانت الاسرة قد ازدادت ابنتين ، ولكن تصرفات الكابتن المغامر لم تتبدل ، على الاطلاق . فهو أب حاد المزاج شهرا ، وجندى محارب بقية شهور العام ، الى أن وضع حدا لهذا التردد بين الثكنة والاسرة ، فآثر الاولى ، وانفصل عن زوجته نهائيا عام ١٨٦٠ . وعادت فيتالى باطفالها الى منزل ذويها فى شارلفيل ووضعت فى العام نفسه ، ايزابيل ، وهى خامس ابنائها ، والاخت الاثيرة عند الشاعر .

وكان الجد « كويف » قد مات ، خلال هذه الفترة ، فاضطرت الأم الى البحث عن مسكن فى شارلفيل تعيش فيه مع أبنائها ، وانتقلت الاسرة الصغيرة الى بيت متوسط ، فى شارع « بوربون » القديم ، وكان من الاحياء الفقيرة فى المدينة .

واتيح للأم أن تتصرف نهائيـــا فى تربيـــة أولادها ، فغرست فى نفوسهم ، منذ الطفولة البـــاكرة التعـــاليم المسيحية ، وحب التقشف والرضوخ ، وجعلت من المنزل شبه محراب ٠ فكانت شموع الكنيسة الشاحبة ، وصليب المسيح ووجه فيتالى المعذب القاسى ، الصـــور الاولى التى تفتحت عليها عينا الصـــغير رامبو ، وخفق لها قلبه .. وكان هذا الجو الروحى يفجر فى أعماق نفسه ، ينابيع ثرة من العاطفة المتأججة ، جعلت الجموح طبعـــا فى نفسه . فكان حبه لاخوته لا يحد ، وكان خوفه من امه يبكيه فى معظم الأحيان . وحدث فى هذه السنوات ، أن ماتت احدى أخواته ، فكان موتها فاجعـــة لا ســـبيل فيها الى العزاء ، أوشكت أن تدفعه الى الهزال والموت. وكانت الأم تزيد هذه التربية العنيفة قسوة واضطرابا ، بفرضها السلطان المطلق على بنيها ، فكانت تمنعهم من الاتصال بأى طفل من أبناء الجيران ، ومن اللعب معهم ، وتحرص على الا يدخـــل هؤلاء المنـــزل ، وكانت تمنع ابناءها من استعمال الدمى والالعاب ، وتعلمهم اعتبار كل ما هو خارج هذا المنزل ، بغيضا وشريرا فى هذا الحى القذر .

ويبدو أن هـــذه الشروط القاسية من الحياة ، قد بكرت فى ايقاظ روح التحدى والتمرد ، فى نفس الطفل الهادىء ارثر ، اذ انه لم يكد يتم السابعة من عمره ، حتى بدأ فى الاحتيـــال على أمـــه ، ليقضى أكثر أوقاته فى الشارع ، مع أبناء الحى ، وكان يشعر بحب عميق لهم وشفقة عليهم ، وقد كتب عنهم فى قصيدته : « الشعراء فى السابعة » :

« يا للرحمة ! هؤلاء الاولاد وحدهم كانوا معارفه .

« وكانوا بجباههم العريضة ، وعيونهم الذاهبة فى الوجنات .

« وأصابعهم الهزيلة التى لطخها الوحل بالصفرة والسواد .

« وقد أخفوها تحت ثياب مهترئة من عفن السوق .

« كانوا يتحدثون برقة البلهاء .. »

وكانت عواطفه المشبوبة ، وانفعالاته البريئة ، تجعل من نفسه فى هذا الجو الزاخر بالمفاجئات ، مسرحا لأحلام مليئة بشهوة الانطلاق وحب التشرد :

« فى السابعة من عمره كان يتخيل قصصا عن الحياة .

« فى الصحراء الكبرى ، حيث تشرق الحرية الرائعة .

« على الغابات ، والشطآن ، والسهول ، والشموس المشرقة .

« وكان يستعين برسوم الصحف المصورة ، حيث يتأمل فى خجل

« الاسبانيات ، والايطاليات ، وقد انفجرن ضاحكات » .

وفى بعض الأحيان كان يجرؤ على دعوة بعض صبية الحى الى دخول المنزل ... فيلعب معهم مستهترا بجميع نصائح أمه :

« عندما كانت تأتى ابنة العمال فى تلك الناحية ، وهى فى الثامنة .

« بعينيها القاتمتين ، وزيها الهندى ، وسماتها المجنونة .

« عندما كانت تأتى هذه الصغيرة الشرسة ، وتقفز
« فى احدى الزوايا على ظهره ، وهى تشد غدائر شعره .
« كانت ترض جسمه رضا بقبضات يدها وقدميها .
« وكان يحمل رائحة جسدها الى مخدعه » .

وفى أيام الآحاد كان المنزل كله يرغم على الذهاب الى الكنيسة . وكان المارة فى شوارع شارلفيل يقفون فى فضول ليروا منظرا فريدا : الأم رامبو ، سائرة فى وقار فى طريقها الى الصلاة ، وامامها الابنتان : فيتالى وايزابيل ، تمسك كل منهما بيد الاخرى ، ووراء الفتاتين ، الصغيران : فريدريك وارثر ، وفى يد كل منهما مظلة قطنية زرقاء ، وعلى رأسه قبعة مستديرة . وكان رامبو فى هذا الموكب يلتفت يمنة ويسرة ، متحديا نظرات المارة المبتسمين ..

وعندما كانوا يعودون الى المنزل ، كانوا يخلدون الى الصمت والهدوء . لأن يوم الاحد مقدس فى نظر الأم ، والخشوع فيه أجدى ، فيحرم حتى الكلام :

« كان يخشى أيام الآحاد الكابية فى ديسمبر .
« اذ كان يجلس مسمرا الى طاولة من « الكابلى » .
« ويقرأ الكتاب المقدس بحافته الخضراء الباهتة .
« وفى كل ليلة كانت الاحلام ترهقه وهو فى مخدعه ..
« ولم يكن يحب الله ...
« كان يحلم بالمراعى العاشقة ، حيث الانفاس المشرقة
« والاريج النقى ، والزغابات الذهبية .

« تتحرك فى هـــدوء وتأخذ طريقها فى التعالى عبر الفضاء ... »

وكان الطفل الموهوب يشعر يوما بعد يوم بوطأة هذا السجن الضيق الذى يعيش فيه ، فكان يلجأ فى ساعات الضجر والتبرم ، الى غرفتـــه العالية ، ويقف وراء قضبان النافذة وينسج فى حنين قصصا وخيالات عن الحياة فى غير هذا المـكان ..

وفى عام ١٨٦٢ شعرت الأم نفسها باغتراب فى هـذا الحى البائس ، لأنها لم تستطع لجفاف طبيعتها ، ان تتعرف الى الجيران ، وتأنس بهم ، فانتقلت الى حى نظيف فى ساحة أورليان يسميه سـكان شارلفيل ، تحت الاروقة ... وكان المنزل الجديد على جانب من التناسق والجمـــال ، تتشعب أمامه ممرات محفوفة بأشـــجار الكستناء ، وتحيط به بعض الفنـادق الصغيرة ، ومن هذا المأوى فتحت أبواب العالم أمام هذا الطفل الذى شعر منذ هذه السن المبكرة بأن آفاق العالم اللانهائية هى مأواه الوحيد . فأرسلته فيتالى مع أخيه فريدريك الى مدرســـة « روسا » المعروفة بنزعتها العلمانيـــة واتجاهها الحر ولعل من متناقضات الأم اختيار هـذه المدرسة ، وفيها تعلم رامبو اللاتينية ، وكان قد بلغ الثامنة من عمره .

المتعبد القذر

« ليس من الحسن ان نبلي
سراويلنا على مقاعد الدرس »

رامبو

دخل الطفل فى جو المدرسة كزوبعة شريرة ، لاتعرف الاستقرار ولا تحب النظام . وكانت أولى كلماته فيها : « لا فائدة من تعلم اليونانية والتاريخ والجغرافيا » . وفى الاسابيع الاولى كان يرى فى باحة المدرسة امام جمهرة من زملائه الصغار ، وهو ينصحهم بعدم الخضوع لنظام المدرسة ، ويشتم الكتب ، ويهزأ بالمعلمين مقلدا حركاتهم « البليدة » ، وكانت هذه التصرفات تعتبر نوعا من الشغب المألوف من الكسالى · لولا ان ملاحظة غريبة قدمها فى أحد دروس الانشاء ، لفتت اليه الانظار ، ورأى فيها معلمه روحا مستغرقة فى متابعة حلم عميق فوق مستوى الصغار .

« الرياح المنعشة تحرك أوراق الاشجار بغمغمات تشبه وشوشات المياه الفضية فى الساقية المنسابة تحت قدمى . والطحالب تحنى جبهتها الخضراء أمام الريح العاتية . وأنا فى غفوة سكرى بعد أن ارتويت من ماء الساقية » .

وختمها بشتائم بذيئة للمدرسة والتقاليد · « اما أنا ، فلسوف يكون لى مصدر رزق فى غير هذا المكان . ليس من الحسن أن نبلى سراويلنا على مقاعد الدرس» .

ولكنه رغم ذلك ، كان شعلة من الذكاء . فكان

يحفظ دروســـه بسرعة عجيبـــة ، ويجتاز الامتحانات المدرسية بتفوق خارق ، حتى اضطرت هـــذه المدرسة الاولية الى ترشيحه لدخول معهد شارلفيل قبل أقرانه واضطر هذا المعهد نفسه الى أن يرقيه سنتين دراسيتين بعد ثلاثة شهور من دخوله المعهد .

وكان المعهد يقع على شاطىء النهر ، فى مكان منعزل من المدينة ، يقوم فيه دير قديم . وكان رامبو يجد متعة فى الابتعاد عن ضجيج رفاقه ، وتأمل الزوارق الصغيرة الراســـية على الشاطىء . ويروى صـــديقه « ارنيست ديلاهاى » انه فاجأه مرة وهو يحدق طويلا فى ترقرق مياه النهر ، والاعشاب المقتلعة والبقايا التى تقوم على الماء ، ويغمغم : « المركب النشوان » وهو عنوان القصيدة التى اشتهر بها فيما بعد .

ولــكن هذه الروح الحالمة لم تكن لتحول بينه وبين واجباته المدرسية ، وشقاوته بين رفاقه ، وشغبه . وكان يجلس فى احدى زوايا الصف ، دون أن يهتم بما يقول معلموه ، بل كان يســـخر منهم ، ويتحداهم ، وكان معلم اللاتينية « المسيو بيريت » اكثر هؤلاء تعرضا لسخريته ، فكان رامبو يقلده فى القاء أشعار « فيرجل » ويثير ضحك رفاقه . وكان بيريت يقول عنه : « أن له عينين وابتسامة لا تعجبنى ، انه ذكى بقدر ما تريد ، ولكن نهايته ستكون ســـيئة » . وفى دروس العلوم والرياضيات ، كان رامبو يكتب على قصـــاصات من الورق ، أشعارا من نظمه ، باللاتينية ، يصف بها رفاقه ويوزعها عليهم ، وكثيرا ما كان يلقى تأنيبا من مدير المدرسة « المسيو ديدوت » ، فكان يخرج من غرفة الادارة وهو يهز كتفيه . وقد قال عنه « ديدوت »

هذا : « لن يكون شيء تافه فى هذه الراس ، انه اما ملاك واما شيطان » .. ! ؟

وكان رامبو طوال دراسته ، رئيسا على صفه ، لأنه كان ينال الدرجة الاولى فى كل سنة . فكان هذا يشعره بقوة شخصيـــته ، وتفوقه ، فيتحدث مع رفاقه فى كبرياء وتعال . وكان يقوم بنفسه بتأديبهم ومعاقبـــة المسيئين . فى احدى الدروس أهوى بدفتر ضخم على راس أحد التلاميذ لأنه وشي بزميل له ، وفى ذات يوم رأى بعض التلامذة يلعبون فى باحة الدير ، ويتراشقون بماء الجرن المقدس وهم يضحكون ، فانقض عليهم فى ضراوة ، وعلى الرغم من أنهم أمطـــروه بوابـــل من الصفعات ، فقد بقي ينشب أظافره وأسنانه فىأجسامهم الى أن جاء ناظر المعهد . ومنذ ذلك اليوم أطلقوا عليه اسم « المتعبد القذر » .

ولم يكن الايمان والتدين ، مبعث هذا السلوك بمقدار ما كان التحدى وفرض شخصيته عليهم . ذلك أن أمه فاجأته بعد أيام من هذه الحادثة ، وهو يقرأ فى كتاب يتنافى والكاثوليكية ، فانتزعته من يده غاضبة ، وعاقبته بالحبس فى « السقيفة » طوال النهار . وقد أشـــار الى هذا فى قصيدته « الشعراء فى السابعة » :

« وكانت الأم تغلق كتاب الوجائب
« وتمضى مطمئنة يملؤها الفخر ،
« دون أن ترى فى عينى طفلها الزرقاوين
« وتحت جبهته المرتفعة ،
« روحه وقد افعمت بالاشمئزاز .
« فى كل يوم كانت الطاعة ترهقه » .

والواقع ان شراسة رامبو فى المدرســـة ، كانت الى

حد بعيد ، ثأرا لرضوخه أمام جبروت أمه التى لم تخفف الايام شيئا من قسوتها وروحها التقليدية ...
وكان من الطبيعى أن تنشأ حرب صامتة ، بين الأم التى ـ لم يرها تبتسم مرة واحدة فى حياته ـ كما قال عنها ، وبين هذه الروح الطليقة الجموح التى امتاز بها منذ نعومة أظفاره . وكثيرا ما كان هذا التنافر الصامت بين الأم والابن ، ينفجر فى حوادث شتى تعيد الى جو المنزل ذكرى الكابتن رامبو الذى أورث طفله المتمرد كل ما فى نفسه من تشرد وجنون . وقد بقيت قصة هذا النزاع تتكرر طوال حياة رامبو الصغير ، وتجعل من أمه الصخرة العاتية التى تقف فى طريقه انى سار . وقد كانت حادثة حبسه من أجل قراءته كتابا محرما ، بداية لهذه الحرب الخفية ، بين شخصيتين متناقضتين ، وقد ذكره فيما بعد فى كتاب « الاشراقات » معتبرا اياها أول عذاب يتعرض له فى سبيل أفكاره : « فى الثانية عشرة من عمرى سجنت فى سقيفة ، وعرفت العالم ، فهمت المهزلة الانسانية بأسرها » .

وعندما بلغ الرابعة عشرة من عمره كانت شارلفيل بأسرها تتحدث عن ذكائه وتلهج بذكر هذا الصبى العجيب الذى أتقن اللغة اللاتينية كما لم يتقنها معلم قبله وبدأ ينظم بها أشعارا ، وحفظ التاريخ القديم كله ، وكتب تعليقا على حوادثه ، وفاز فى مسابقة الشعر اللاتينى لعام ١٨٦٩ بقصيدة تضم ثمانين بيتا من الشعر المتين ضمنها صورا بارعة عن حرب الجزائر ـ لعلها من ذكريات أبيه ـ واضطر ناظر المعهد الى أن يهتف وهو يقدم له الجائزة : « لقد رفعت رأس شارلفيل عاليا ... »

وفى مطلع العام الجديد ، كان معلموه يتـــداولون قصيدته الاولى بالفرنسية ، « هدايا راس السـنة للأيتـــام » وكانت مثار دهشة واعجاب ، لأنها كانت بالفعل من أروع الشعر . وقد صور رامبو فى هـذه القصيدة التى تزيد على المـــائة بيت ، أحزان طفولة متشردة فقدت حنان الأم ، ومشاعر نفس مرهفـــة بجمال العالم ، حالمة بحياة الانطلاق .

« وتوهما انهما راقدان فى فردوس وردى
« والنار تترنم فرحة فى موقد متوهج الاضواء
« وسماء جميلة زرقاء تطل من النافذة
« والطبيعة تستيقظ ونور الشمس نشوان ،
« والارض السعيدة بعودتها الى الحياة
« ترتعش ، وهى نصـــف عارية ، تحت قبـــل الشمس » ...

شيطان الشعر

« .. نحو السماء ، حيث
ترى عيناه عرشا رائعا .. »

بودلير

فى عام ۱۸۷۰ دخل معهد شارلفيل عنصر جديد قلب حياة الشاعر الصغير راسا على عقب ، هو «جورج ايزامبارد » الذى عين معلما للبلاغة فى المدرسة . وكان ايزامبارد شابا فى الحادية والعشرين من العمر ، حاد الذكاء ، كثير الحيوية ، وكان من الجمهوريين المتشبعين بروح الثورة الفرنسية والمتحمسين للرومانتيكية التى كانت لا تزال تفرض سلطتها على الجيل الاوربى القلق، ولمس رامبو فى أول دروس المعلم الجديد لهجة حارة مؤمنة لم يعهدها فى جو المدرسة التقليدى الجاف ، فشغف به ، وانتظره قرب الباب ، وقدم له نفسه ، ثم رافقه حتى غرفة المعلمين ، ولم يخف على ايزامبارد، منذ اللحظة الاولى ، ذكاء تلميذه ، فقربه منه ، وكان يحدثه فى أوقات الفراغ ، عن الادب والسياسة ، ونشأت بين الاثنين صداقة متينة ، لفتت الانظار . واتهم ايزامبارد مرارا بانه يفسد تلميذه المشغوف ، بآرائه السياسية المتطرفة ، فكان ينكر ذلك قائلا : « انه يصحبنى فى الطريق فحسب ، ونتحدث عن الشعر والشعراء » .

والواقع ان ايزامبارد كان يتجاوز فى احاديثه مع الفتى الثائر حدود الشعر والادب . فكان يحدثه عرضا

عن جراة الجمهوريين فى باريس فى مقـــــاومة حكم الامبراطور ويحمل له انباءهم باستمرار ، ويطلعه سرا على اعداد من جريدة « الصباح » الممنوعة وكان رامبو يجد فى هذه القراءات صدى لما تحس به نفسه من ثورة وتمرد . ولكن التاثير الاقوى الذى تركته هذه الصداقة فى حيـــاة رامبو ، هو مطالعاته . كان ايزامبارد يملك مكتبة كبيرة ، معظمها من الادب الحديث الذى كانت البيئة الثقافية فى شـــــارلفيل تعتبره بدعة ، وتحرم قراءته . وانكب رامبو على مكتبة صديقه الكبير ينهل من معين هذا النوع من الادب ، فاحبه ووجده أقرب الى روحه من جميع الكتب الـكلاسيكية والدينية ، ودخل بذلك الى نفس رامبو جو جديد تتالق فيه أسماء بودلير ، وبانفيل ، وهوجو ، وسان سيمون ، وبرودون ، والمؤلفين الاشتراكيين الأخر . وقرأ فى كثير من الامعان تاريخ الثورة الفرنسية ، ومؤلفات ميشيليه ، وكان سريع التأثر بما يقرأ فلم تمض فترة قصيرة حتى كانت نفسه مفعمة بروح الثورة . فكان يحدث ايزامبارد عن ضرورة تحقيق حياة حرة للأفراد ، أشـبه ما تكون بالفوضوية وعلى مقـــاعد الدرس كان يشتم نابوليون الذى « أدى بالثورة الى الفشل » ويتوجه الى وظائفه المدرسية ، بنداءات حارة الى سان‌جوست ، وروبسبير واصبح أستاذه فى التاريخ الأب « ويلهم » يضـيق به ذرعا لكثرة ما يثير من أسئلة ، حتى اضطر رامبو الى التغيب عن دروس التاريخ ولأول مرة تتفتح عينا رامبو على نوع جـديد من الشغب : أن يهجر المدرســـة . فكان يتغيب عن معظم الدروس ، وينطلق فى شـــوارع شارلفيل ، شارد الذهن ، منفعل النفس ، يحلم أو

يفكر فى قصيدة أو ثورة .

وفى أحد الايام فاجأته أمه وهو يقرأ كتابا لفيكتور هوجو ، فانتزعته من يده ، وأنبته على قراءته ، وكان قد استعار هذا الكتاب من ايزامبارد فكتبت الأم الى ايزمبارد هذه الكلمة :

« عليك ان تعرف أكثر منى ان من الواجب أن نعنى باختيار الكتب التى يقرؤها الاطفال ، وارى ان رامبو قد استعار هذا الكتاب منك » .

وكانت فيتالى تظن انه كتاب « البؤساء » ، وهو من الكتب المحرمة فصحح لها ايزامبارد اعتقادها ، لأن الكتاب هو احدب نوتردام ، وان غايته من اعارته الى رامبو ، أن يطلعه على جانب من الادب المحلى . ولم تقتنع الام بل اصرت على ان ايزامبارد كان يفسد رامبو ، وشكته الى مدير المدرسة ، وتوجه المدير الى ايزامبارد باللوم والتأنيب .

هذه الحادثة كانت حدا فاصلا فى فتوة رامبو . اذ شعر بأنه وصديقه جبهة واحدة أمام شارلفيل كلها ، فازدادت صلتهما متانة ، وكان ايزامبارد يدعم رامبو فى كل آرائه وثورته . وكانا يقومان بنزهات مسائية على ضفاف « الموز » يتبادلان الاحاديث فى جو من المحبة والود . وخلال هذه الاحاديث كان يشعر رامبو بشخصيته ، فقد كان استاذه يعامله معاملة الند للند.

وفى هذا الجو ، وجد رامبو ، بتشجيع صديقه الطيب ، أن رسالته فى الحياة أن يكون شاعرا كبيرا كما كان فيلون شاعر فرنسا الاول ، ان نداء حارا كان يتصاعد من أعماقه لكى يشق لنفسه هذا الطريق ، وهو الذى

املى عليه هذه الاسطر التى ذيل بها احد موضوعاته فى دروس البلاغة .

« هؤلاء الشعراء ، كما ترى ، ليسوا من هذه الارض . دعهم يعيشوا حياتهم الغريبة . دعهم يقاسوا البرد والجوع، يركضون ويحبون ويغنون، انهم أثرياء ، هؤلاء الاطفال المجانين ، لان نفوسهم تمتلئ أوزانا وقوافي، شعرا يضحك ويذرف الدموع ، ويثير فينا الفرح والبكاء .. »

وانصرف رامبو ينظم الشعر من جديد ، فى شغف عجيب ، ولم يعد يهتم بدروسه على الاطلاق. كان ينظم فى جميع الاوقات ، وكانت موحيات شعره فى هذه الفترة ، قصائد قراها لشعراء سابقين ، ورأى ان نفحة جديدة يجب ان تدخل اليها هى رائحة الشارع .

وفى أحد الايام بينما كان عائدا الى المنزل مساء ، رأى فى أحد الشوارع عاملا ثملا ، ملقى على الارض فى حالة يرثى لها ، يردد والخمر تنبعث من انفاسه : « سكير ، سكير .. » وبقى هذا الصوت يطن فى أذن رامبو ، حتى وصل الى المنزل ، فاستمد من ايقاعه وزن قصيدة بعنوان « الحداد » : كانت أصدق تعبير عن روح الثورة والتعاليم الاشتراكية فى نفسه فى ذلك الحين :

« ... ومنذ ذلك اليوم ، يمتلك نفوسنا الجنون ،
« ان كومة من العمال قد طلعت فى الشارع ،
« ان هؤلاء المعذبين وهم جمهرة تزداد يوما بعد يوم ،
« بقادمين مجهولين من جميع الانحاء ،
« انهم ليمضون الى أبواب الاثرياء ،
« وأنا ... أهرع معهم لسحق الطغاة الاشرار .

ويتعرض فيها للامبراطور نابليون الثالث :

« ومن النافذة المفتوحة ، يضع الناس كل شيء
« أمام أنظار الملك ، وقد شحب وجهه ، وعرق جسمه
« ونهض مترنحا ، مريضا مما كان يرى ...
« . . . . . انه السكير يامولاى ،
« لعابه يسيل على الجدران ، ولكن جنسه يزداد وينمو
« وما داموا لا يأكلون ، يامولاى ، فهم متسولون ،
« وانا حداد . زوجتى معهم الآن ، مع الثائرين ،
« يالها مجنونة ! تظن انها ستجد خبزا فى التويلرى
« والخبازون يطردوننا ولا يريدوننا ،
« وعندى ثلاثة أولاد ، أنا السكير ، و ..
« واعرف كهولا يسيرون وهم يذرفون الدمع تحت
قبعاتهم ،
« لأنهم أخذوا منهم أبناءهم أو بناتهم .
« اواه ... ان جميع الاشقياء ، كل هؤلاء الذين
تلتهب ظهورهم
« تحت الشمس القاسية ، والذين يمضون ويمضون
« والذين يحسون جباههم وهى تتفضن وهم يكدحون
« اخفضوا قبعاتكم ، أيها البورجوازيون ! ان هؤلاء
من البشر
« نحن عمال ، يامولاى ، عمال نحن ،
« نحن أبناء العصور الجديدة المليئة بالعظمة ... »

والقصيدة تحمل تاريخ نيسان ١٨٧٠ ، ورامبو فى السادسة عشرة من العمر .

نداء المجهول

« وثبة لا نهائية غير معقولة نحو روائع غير منظورة ومسرات تتجـــاوز حـــدود الحس ... »

رامبو ــ الاشراقات

كان الربيع فى شارلفيل رائعا ، مشرق الازهار، على الرغم من السحب الخفيفة التى تغطى سماء المدينة فى معظم الاحيان ، وكانت الجولات اللانهائية فى الشوارع والمتنزهات قد أصبحت شيئا عزيزا على رامبو ، وقد تعود ، أثناء غياب ايزامبارد ، أن يســـتغرق فى نزهات شعرية معتزلة فكان يقف ساعات أمام النهر ، يتـــأمل انسيابه الظليـــل من الشرق ، وانعطـــافاته الخضراء الجميلة ، نحو الشمال ، ثم غيابه فى مجراه الصـــخرى الازرق . وكان رامبو يشعر بصـــوت سحرى غريب ، يهدر فى كل دمائه ، داعيا اياه الى الانطلاق فى رحاب عوالم غريبة غير هذه المدينة المألوفة .. وفى ربيع هذا العام ١٨٧٠ يعرف رامبو ــ على حد تعبير مترجميه ــ اولى تجاربه الصوفية . لقد كان النهر يدعوه أبدا الى المجهول ، الى اشراق باهر ، ترف فيه الروح الشاملة ، بكل ما فيها من غبطة ونشوة . ومن انسياب النهر ، يستوحى قصيدة « اوفيليا » التى كتبها بعد أيام من « الحداد » :

« اى اوفيليا الشاحبة ! ايتها الجميلة كالثلج ،

« لقد طواك الردى ، وانت طفلة يحملها النهر بأمواجه
« انها الرياح المتساقطة من أعالى جبل النروج ،
« حدثتك فى همس عن الحرية القاسية .
« انها نسمة ، داعبت ضفائرك المتهدلة الطويلة ،
« وحملت الى روحك الحالمة ، ضجات غريبة ،
« وكان قلبك يصغى الى نشيد الطبيعة ،
« فى نجوى الاشجار ، وزفرات الليالى ...
« انه صوت البحار المجنونة ، هذه الحشرجة البعيدة

. . . . . .

« انه فارس جميل شاحب ، اتاك فى صباح من نيسان ،
« مجنونا بائسا ، وجثا امام ركبتيك ...
« السماء ، الحب ، الحرية ، يا لها من احلام سحرية
« كانت تعيش فى روحك ايتها المجنونة البائسة ،
« وكنت تذوبين فيها ذوبان الثلج فى النار ،
« والرؤى العظيمة كانت تخنق الكلمات فى صدرك ،
« واللانهاية الرهيبة ، تبعث الخوف فى عينيك الزرقاوين » .

اوفيليا هى رامبو . وهو قد استمد من شيكسبير هذه الصورة الفذة عن براءة الانسان وطهره ، وطلبه اللجوج أن يتحرر من مفاسد العالم ، وقيود المجتمع ، واستمد منه فى نفس الوقت ، هذه المأساة التى تشعر الانسان بأنه لن يقوى على ذلك ، وان الخلاص حلم عابر ليس الا . وقد ذهبت اوفيليا شيكسبير ضحية هذا الحنين وهى فى عنفوان العمر ، اما رامبو ، فان الحنين يزيده قوة وعزيمة ، وتعلقا بالحياة . ان المجهول يناديه ويدعوه اليه ، ولن يمضى صامتا ـ كما فعلت اوفيليا ـ

بل سوف يغني هذا الحنين الغامض الى اللانهاية ، لأنه شاعر... واستغرق خلال الشهور القليلة من اواسط عام ١٨٧٠ ، فى تأمل جمال الطبيعة ، بروح صوفية غريبة ، وكان يخيل اليه ان كل ما فى العالم من تألق واشراق ، وما فى الاشياء من جمال ، ليس الا ارتعاشة حية لروح عظيمة نشوى هى المطلق ، تحل فى كل مشكلة من مشاكل الوجود ، ونحس وجودنا بحواسنا ودمائنا . وهذه التجربة تسيطرعلى قصيدتين جديدتين ينظمهما قبيل انتهاء السنة الدراسية لهذا العام ، وهما : « أحساس » و « الشمس والجسد » .

والاولى مقطوعة قصيرة هى :

« فى أماسى الصيف الزرقاء ، سوف أنطلق فى الشعاب،
« تخدشنى سنابل القمح الطويلة ، واطأ العشب الدقيق بقدمى ،
« واشعر وأنا فى غمرة حلم ، بالرطوبة تداعب خطاى
« تاركا الرياح تغمر راسى العارى .

« لن اقول شيئا ، ولن أفكر بشىء ،
« ولكن الحب اللانهائى سوف يتصاعد من نفسى ،
« فامضى بعيدا ... بعيدا جدا ، كمتشرد بوهيمى
« فى أحضان الطبيعة ..
« سعيد ، كما لو اننى بين احضان امرأة ... »

وفى قصيدة « الشمس والجسد » ، يضع ما يشبه ديانة جديدة تقف وجها لوجه أمام المسيحية . ان حياة الروح والابتهال والالم ليست هى سبيل التوصل الى الله والخلاص ، بل حياة الحس والدم والعصب ، فالعودة الى الطبيعة ، الى كل ما فيها من جمال وتجدد ، هى وحدها العبادة الحقيقية ، لأنها رغبة وشهوة ،

انفعال تستيقظ فيه كل جوارحنا للحياة . ان الله نفسه ليس الا رغبة تخلق العالم فى استمرار ، والاله الجديد هو افروديت ، الدفء والجسد :

« الشمس ، ينبوع الحنان والحياة ،
« تسكب الحب الملتهب على الارض النشوى .
« وعندما يرقد الانسان فى الوادى ،
« يحس أن الارض تراق وتهدر فيها الدماء ،
« وأن صدرها الرحيب ، وقد ترددت فيه نفس حارة ،
« هو حب كالله ، وجسد كالمرأة ...

. . . . .

« اؤمن بك ، اؤمن بك ، ايتها الام الآلهة .
« يا افروديت البحار ! اواه ، ان الطريق اليك لشاقة
« منذ أن ربطنا الاله الآخر الى صليبه ،
« أيها الجسد ، أيها الرخام ، أيها الزهر ، اى فينوس،
« كل ايمانى بك وحدك ،

. . . .

« أجل ، ان الانسان لحزين ودميم ،
« حزين تحت السماء الرحيبة ،
« انه يرتدى ثيابا لأنه لم يعد رشيقا ،
« لأنه قد لطخ طلعته الالهية الفخور ..
« وانت ، اى افروديت العظيمة ،
« من قلب البحار الهائلة ، ستظهرين مشرقة رائعة ،
« قاذفة على الكون الرحيب ،
« فيض الحب اللانهائى فى ابتسامة لا نهائية ،
« والعالم سوف يهتز كقيثارة عظيمة ،
« بارتعاشة قبلة لا حدود لها ،
« العالم ظامىء الى الحب ، وسوف تروين غليله .. »

هذا النضوج العجيب ، فى نفس فتى لم يتجـــاوز السادسة عشرة ، كان بداية لميلاد شاعر أصيل يريد أن يضع فلسفة جديدة للحياة . ولـكن ما من أحـــد فى شارلفيل كان يشعر بهذه الوثبة الفذة التى خطتهـــا عبقرية الشاعر الفتى ، سوى « ايزامبارد » الذى اطلع على القصيدة فى مزيج من الدهشة والاعجاب . على ان رامبو نفسه كان قد تغير ، فأصبح لا يحدث الناس على الاطلاق ، وهجر المدرسة نهائيا ، ولكنه اجتاز الاختبـــار النهائى فى تفوق ، كما انه أحرز الجائزة الاولى فىمسابقة الشعر اللاتينى لهذه السنة بقصيدة « موعظة سانشو بانزا لحماره » وفى حفلة توزيع الجوائز ، كان منقبض الصدر ، وعندما نودى لتناول الجائزة ، رفض أمام الحفل قائلا : « هذه أشياء تافهة لا قيمة لها .. » ولكنه فى الواقع رفض الجائزة لســـبب آخر . كانت الثورة قد أصـــبحت تجرى فى عروقه ، الثورة على الامبراطور ، وطبقتـــه الثرية ، وحكومته التى ترهق الشعب بطغيانها ومفاسدها ، ورامبو يرفض أية هبـــة تأتيه من مصدر رسمى ، ومحافظ المدينة هو الذى كان يوزع الجوائز ، وهو بذلك يمثل الامبراطور ...

ودارت الالسن حول تصرف هـــذا الفتى الشاذ ، واتهمه بعضهم بالجنون ، كما ان امه أنبته وأوشكت أن تضربه ، ولكنه لم يكترث بشيء ، وكانت نهاية السنة حزينة بالنسبة اليه ، لأنها اضطرت صديقه ايزامبارد للسفر الى « دوى » لقضاء عطلة الصيف ، وبذلك فقد رامبو الانسان الوحيد الذى يحبه ويانس اليه .

المتشرد الصغير

« فلنمض .. »
رامبو ـ فصل فى الجحيم

كان ايزامبارد قبـــل سفره قد ترك لرامبو مفتاح غرفتـــه ، وأتاح له التصرف بمكتبته كما يشـــاء ، فاستغرق رامبو فى القراءة ، ولكن شـــاغلا جديدا ملأ نفســه من جديد ، هو الحرب . وكانت حرب السبعين قد اعلنت ، واعلن النفير العـــام فى فرنســـا ، وبلغت الحماسة أشدها فى نفوس الفرنسيين ، ضد بسمارك ، واجتاحت نفس رامبو أيضا ، ولكنها كانت حماسة من نوع آخر . كانت الحرب فى نظره نذيرا بالفوضى التى يحلم بها ، الفوضى التى تحمل فيهـــا جماهير الشعب السلاح فى وجه الطغيان أيا كان نوعه ، فرنســـيا أو المانيا ، وان عدو بلاده ليس بســـمارك فحسب ، بل الامبراطور الفرنسى والنبلاء الاثرياء حوله . وكان يرى ابناء بلدته وهم يساقون الى الجبهة ، فتغمره مرارة قلقة . انه يريد أن يشترك فى كل شيء ، أن يحارب مع المحاربين ، ويقود بنفسه بعد ذلك جماهير العمال لحرق فرساى كما جاء فى حلم « الحداد » ولكن ذلك لن يقدر له لانه « صـــغير » ٠٠ فكان يترقب أنباء الحـــرب فى انتظار وسأم ، وعندما جاءت أولى قوائم الضحايا فى

المعارك الدائرة ، تبدلت نفسية رامبو كل التبدل ، لقد كانوا جميعا من الطبقة الفقيرة الكادحة التي أحبها وتغني بها في أشعاره . وكتب الى ايزامبارد في ٢٠ آب ١٨٧٠:

« أن وطني ينهض ، وأنا أفضل أن أراه جالسا . انني تائه ، مريض ، ثائر ، احمق ، مضطرب . كنت أحلم بأن أمتع نفسي بحمامات من نور الشمس ، بنزهات لا نهاية لها ، بالراحة ، بالرحلات ، بالمغامرات ، بالتشرد البوهيمي ، كنت آمل بصورة خاصة أن أحصل على صحف وكتب ، فكان لا شيء ، لا شيء ، والبريد لم يعد يأتي الى أصحاب المكاتب .. ان باريس تسخر منا ، أما من كتاب جديد . حياتي هنا هي الموت ... أنا منفي في وطني » .

وكتب اليه بعد أيام :

« لقد قرأت جميع كتبك ، جميعها ، منذ ثلاثة ايام . والآن لم يعد لدي أي كتاب .. »

وضاق ذرعا بشارلفيل وحياته فيها .. وبعد اربعة أيام من رسالته كان يقوم بنزهة مع أمه واخواته ، في بستان خارج المدينة ، وكان الجو قائظا ، وغيوم الصيف ، متجمعة في الافق ، وكانت الاسرة قد جلست في مكان ظليل بعد تعب السير ، الفتاتان تطالعان كتابا تحت الشجرة ، والأم تحمل بأطراف أصابعها مظلة ، وتتأمل أبناءها . وفجأة رأت رامبو يبتعد عنهم . فسألته :

ـ أين تذهب ؟

ـ الى البيت لأحضر كتابا ، أقرأ فيه .

فقالت له :

ـ عد سريعا

ومرت ساعات وساعات ورامبو لم يعد . وقلقت الأم وتصورت ان حادثة فى الطريق قد حدثت له ، فعادت الى المنزل ، ولكنها لم تعثر على أثر له . وانطلقت هى وابنتاها وفردريك يبحثون عن الابن الضائع فى شوارع شارلفيل ، طوال الليل ، وكانوا يسألون المارة ، والحراس ، واصحاب المقاهى والحانات ، وموظفى المحطات ، ولكن عبثا . وكان البروسيون يتقدمون ظافرين من « الآردن » وقد دخلوها وأشرفت طلائعهم على « سيدان » بعد أن منى الفرنسيون بانكسار مريع فى معارك « بومون » وكان خوف الأم لا حد له ، لأن أياما مشحونة بالدموع مرت ، ورامبو لم يعد . انها بداية عهده بالتشرد ..

الحرية ورائحة الخبز

« ... الريح مثقلة بالضجيج ،
والمدينة ليست بعيـــدة .. »

رامبو ـ اشعار طالب

الى أين كان يريد الذهاب ؟ كتبت أمه الى ايزامبارد :

« هل من الممكن أن تفهم حماقة هذا الصبى ، وهو الهادىء الرزين ؟ كيف جاءت الى رأسه هـذه الفكرة الجنونية ؟ »

هـــل كان يريد الذهاب الى الحرب ، وهو يسمع طلقات المدافع تقترب من مدينته ؟ أم ان الذهاب هو كل ما يهمه ؟ أن يحقق حلمه الذهبى فى السفر ، وأن يجوب الآفاق ؟

لقد غادر شارلفيل فى ذلك اليوم متوجها صـــوب الشرق ، حيث تدور رحى المعارك . وبقي سائرا طوال النهار ، فوجد نفسه أمام احـــدى المحطات ، فوقف ينتظر القطار ، وهناك أوقفه الجند . لم يكن فى مظهره وسماته ما ينم عن روح خطرة ، ولـكن لهجته وسلوكه أثارا حوله الشبهات . فقـــد رفض أن يذكر اسمه وعنوانه . وعندما استجوبه الحرس ، سخر منهم ولم يجب . وفتشوه فوجدوا فى أحد جيوبه دفترا صغيرا فيه مسودات مضطربة أشـــبه بالهيروغليفيـة لبعض

قصائده ، فظنوها رموزا سرية . واعتقـــل ، واودع سجن « المازاس » ..

وعندما وجد نفسه بين قضبان السجن ، خانه عناده لاول مرة . واغرورقت عينـــاه بالدموع . فطلب قلما وورقة ، وكتب رسالة الى أمه ، واخرى الى السلطات ، وثالثة الى صديقه « ايزامبارد » يقول فيها :

« ان أملى فيك كأملى فى أمى • لقد كنت لى دائما اخا ، والتمس منك الآن هـــذه المعونة التى اعتـــدت تقديمها الى . لقد كتبت الى امى والى الوكيل العام ، والى مفوض شرطة شارلفيل . اذا لم تتلق منى نبـا حتى الاربعاء ، قبل ان يتحرك قطار « دوى ـ باريس » فاركب هذا القطار ، وتعال الى هنا ، لتطلق سراحى برسالة او بمقابلة الوكيل العام ، وبالاجـــابة عنى . لا تنس ان تفى ما على من ديون ! افعل كل ما تستطيع عندما تتلقى هذه الرسالة ، اكتب أنت أيضا الى أمى المسكينة ! عنوانها « زقاق مادلين ه شارلفيل » . اننى آمرك بذلك ، حاول بعث العزاء فى نفسها . اكتب الى ايضا . افعل كل شىء من أجلى ، اننى احبك كأخ ، وسوف احبك كأب رحيم .. »

وفى نفس الوقت كان مدير السجن قد كتب رســالة الى ايزامبارد ، يرجوه فيهـــا أن يأتى من أجل هـــذا « الصبى الهارب .. » ولم يتردد المعلم الطيب فى تنفيذ اوامر تلميذه السجين ، فلم تمض أيام حتى كان رامبو فى « دوى » ضيفا كريما فى منزل صـــديقه واخيـــه و « أبيه الرحيم .. »

وانبئت الأم بما حـــدث ، وعلى الرغم من اطمئنانها لسلامة ابنها الطائش ، فقد ثارت ثائرتها ، وكتبت

رسالة قاسية اللهجة الى ايزامبارد تتهمه فيها بتشجيع رامبو على هذه التصرفات ، وتلومه على قبوله فى منزله ، بدلا من أن يطرده . ويطلع رامبو على هـذه الرسالة فيستيقظ حقده العريق على أمه ، ويشتم ويهدد ، ويقرر عدم العودة الى شـــارلفيل مهما يكن الثمن . أتكون هذه الرسالة المشحونة بالسباب مكافأة لايزامبارد الطيب ، ولـكن ايزامبـــارد يقنعه بضرورة العودة الى منزله ، ويحل فى نفسه الشفقة على الأم محل النقمة .

ويسافر المعلم وتلميذه الى شارلفيل . فيدخل رامبو المنزل صامتا مطرقا منكسر النفس . ولم تكلمه أمه ، بل شكرت ايزامبارد فى جفاء ظاهر . وكان ذلك فى ٢٧ ايلول ١٨٧٠ .

ومرت أيام والعداء ضارب أطنابه بين الأم وابنها . فلم تكن تحدثه الا لماما وكانت توجه اليه كلمات قاسية ، فكان يجيبها بالتحدى ، وكان قد تغير كثيرا ، فأصبح يدخن أمامها ، ويقرأ أشعار بودلير بصوت عال ، وينظم شعرا على غرارها ، حتى اضطرت الأم الى ضربه فى أحد الايام .

وفى ٧ تشرين الاول ، ترك المنزل من جديد ولم يعد .

كان ذلك فى صباح مشرق تملأ سماءه الزرقاء غيوم الخريف الذهبية ، وتعكس ظلالها العابرة على ضـفة النهر الهادىء ، وبدأ رامبو سفرته مشيا على الاقدام محاذيا النهر ، مستغرقا فى تأمل تلك المشاهد الطبيعية الساحرة واجتاز وادى « الموز » فى استغراق عميق ، كأنه فى حلم بعيد ، ووصل « فومبى » وهى قرية قريبة من شارلفيل ، فلقيه هناك صدفة أحد رفاقه فى المدرسة فدعاه الى بيته . وقضى الزميلان سهرة قصيرة ، أفضى

فيها رامبو الى صديقه بآماله وسبب تركه شارلفيل . انه يريد أن يصبح محررا فى احدى الصحف اليومية ، فأشار عليه صديقه بالذهاب الى مدينة شارلروا لان له صديقا هناك ، يملك والده صحيفة يومية . وأعطاه بطاقة توصية الى ضابط قرية « شارلمونت » القريبة..

ولكن قصيدة غنائية نظمها رامبو فى ذلك اليوم خلال سيره ، ترينا هدفا آخر ، أبعد مدى من العمل فى الصحافة ، انه يريد أن يحقق حلمه بالترحال ، ويروى رغبة جامحة فى الحياة البوهيمية ، وكانت القصيدة بعنوان « حلم من أجل الشتاء » ، مهداة ... اليها ... !

« فى الشتاء ، سوف نمضى فى قطار وردى صغير..
« على وسائد زرقاء ..

« سنكون فى حال حسنة ، وثمة عش من القبلات المجنونة ،
« يكمن لنا فى كل مكان رطيب ..

« سوف تغمضين عينيك كى لا ترين من خلال الزجاج
« ظلال الاماسى ،
« وقد غضنتها هذه الاشباح المتجهمة من الشياطين السود

« والذئاب الكالحة ..
« ومن ثم ، تحسين شيئا يخدش خدك الاسيل ،
« وقبلة صغيرة . عنكبوت مجنونة ،
« تمر مسرعة على عنقك ..

« وتحنين رأسك ، وتقولين لى : « ابحث عنها ..»
« وسوف يمر وقت طويل قبل أن نجد هذا الحيوان
« الذى يتنقل كثيرا ... »

ووصل رامبو الى « شارلمونت » عند المساء ، فقيل له ان ضابط القرية قد سافر الى المدينة فى مهمة رسمية ، فجلس فى غرفته ينتظر ، ولم يلبث أن تمدد على سريره ونام . وفى الصباح ترك المعسكر دون أن يشعر به أحد . وانطلق فى طريقه الى شارلروا ، وكان خلال سيره يتأمل مشاهد الريف ، وينظم الشعر وينسج الاحلام والاساطير ، الى أن وصل الى المدينة .

« منذ ثمانية أيام ، وقد تمزق حذائى ،
« من حصى الطرقات ، وصلت الى شارلروا
« وفى الخانة الخضراء ، طلبت شطيرة من الزبدة
« وفخذا من اللحم كان وشيك أن يبرد ،

« وفى كثير من الغبطة مددت ساقى تحت الطاولة الخضراء ،

« وجعلت أتأمل النقوش الساذجة على الحواشى...
« وكم كان رائعا أن تأتى الخادم الحسناء ،
« ذات الثديين الكبيرين ، والعينين المتقدتين ،
» ـ وفتاة كهذه لا تخيفها القبل ـ
« وتحمل الى ضاحكة ، شطائر الزبدة واللحم البارد
« فى اناء مزخرف الالوان ... »

وفى صباح اليوم التالى ، استطاع أن يقابل صاحب الجريدة المسيو « ديزيسار » . فاستضافه هذا فى منزله، وعرفه بأسرته ، وعندما طلب اليه رامبو العمل فى الصحيفة ، فوجىء ، وقال له : « ان هذا يحتاج الى شىء من التفكير .. »

محرر فى السادسة عشرة ، فى صحيفة كبيرة . يالها من قصة مضحكة ! ولكن تصرف رامبو اعطاه الجواب النهائى ، اذ بينما كانوا يتحدثون فى السهرة عن الحرب

وانبائها ، ثار رامبو وشتم الامبراطور ، وفى اليوم التالى طرده صاحب الجريدة : « ان صحيفة تحترم نفسها ، ولها تقاليدها ، لا تستطيع ان تدخلك فى أسرة تحريرها»

وخرج رامبو من المنزل ساخرا من لهجة الرجل الريفية ، وانطلق فى شوارع شارلروا ، يائسا حزينا . وعند الظهر شعر بالجوع ، ولم يجد فى جيبه أثرا للنقود ...

« وعند المساء كان عشائى رائحة الطعام المنتشرة من نوافذ البيوت .. كان يتصاعد منها دخان اللحم والدجاج المشوى ، فى خير مطابخ شارلروا ، وكنت التمس من ضوء القمر ، قطعة من الشوكولاتة .. »

وخرج من شارلروا متوجها الى بروكسل ، سيرا على الاقدام كالعادة ، وكان الجوع والتعب قد هدا قواه ، فلم يكد يأتى الليل حتى ارتمى فى حقل على جانب الطريق ، ونام جائعا فى العراء حتى الفجر . فالتجأ الى أكواخ الفلاحين يلتمس منهم طعاما . ومرت أيام ، وهو ينام فى زرائب الدواب ، أو أكواخ الطواحين وفى النهار يستجدى من العابرين الطعام والنقود ، أو يشاطر خدم الحقول غذاءهم وخلال ذلك كانت سلوته الوحيدة الشعر . وكان الفلاحون يدهشون لهذا الصغير ، ذى العينين الزرقاوين ، والشعر المشعث ، والثياب المزقة ، وهو يتناول دفتره الصغير ، ويخط عليه جملا غير مفهومة . وفى هذه الفترة كتب عددا من قصائده الجميلة منها « تشردى » ، و « الماكسون » ، و « الشريرة » ، و « المقصف » وكانت كلها استمرارا لذلك الحلم العميق ، فى البحث عن عالم غنى بالاضواء المشرقة ، زاخر بالشذى والالوان ، عالم تتنفس فيه

الحواس ، وتصبح كالموسيقى الراعشة ، كايقاع الشعر :

« هناك توجد الاوسمة البراقة ..

« وذؤابات من الشعر ، بيضاء وشقراء ..

« وتعيش الصور والازهار الجافة

« وقد اختلط عبيرها بأريج الثمار ..

« اى مقصف الزمان الخالى ، انك تعرف قصصا كثيرة ..

« وتريد أن تقص علينا حكاياتك ...

« وعندما تفتح فى هدوء أبوابك الضخمة السوداء ..

« تنبعث منك ضوضاء ليس لها حدود ... »

ذلك حلم مغر يعيش فى خيال هذا الشاعر الفتى ، ان يعرف حياة العربدة والضجيج ، حياة الخمر والنساء ، والمصادفات الغريبة . لقد كان يحس ان هذه الحياة هى اللانهاية بذاتها ، وفى أثنائها يكمن الشعر الحقيقى الذى ينضج بالموسيقى والدفء .. ويبدو هذا الحلم اكثر قوة وارهافا فى قصيدة «تشردى»:

« كنت أمضى ، أصابعى فى جيوبى المثقوبة ..

« وثيابى نموذج رائع للناظرين ..

« كنت أمضى ، تحت السماء ، ياربة الشعر ، وكنت ابنك الوفى ..

« وهناك ، هناك ، كم حلمت بحب رائع ..

« وثمة خرق كبير كان فى سراويلى ..

« ولكنى كنت أنظم الاشعار وأنا سائر كطفل حالم ،

« وحانتى ، كانت « الدب الاكبر » فى تلألئه

« ونجومى فى السماء كانت ترتعش فى حنان ..

« كنت أصغى ، وأنا قاعد على حافة الطرقات ..

« الى هذه الامسيات الحلوة ، امسيات ايلول
« وكنت أحس قطرات من الندى على جبينى ..
« كخمرة قوية ... »

ووصل الى بروكسل فى هذه الرحلة الغريبة . ولكن أين يذهب ؟ انه لايعرف أحدا فى هذه العاصمة الصاخبة . ولو انه كان يعرف ، فمن يستطيع ان يتعرف اليه ، وهو فى هذه الثياب البالية ، وهذا الوجه الاغبر ، واستمر هائما على وجهه فى شوارع المدينة يوما أو أكثر ، وكان يمد يده أكثر من مرة ، متسولا من المارة ، وتذكر أن ايزامبارد حدثه مرة عن صديق له فى بروكسل عرف اسمه ، فبحث عنه الى أن لقيه ، وأشفق عليه الرجل ، فاستضافه فى منزله يومين ،وأعطاه ثيابا جيدة ، وبعض النقود . وعاد رامبو فى القطار الى « دوى » وللمرة الثانية يطرق الباب على صديقه الكبير ايزامبارد لاجئا فى الرمق الاخير .

ولم يقابله ايزامبارد بالحنان الذى عهده منه ، فهو فى الواقع قد ضاق ذرعا بهذا المتشرد المجنون ، وبنزاعه اللانهائى المتعب مع أمه . ولكنه لم يقو على طرده ، لأنه ما يزال يحبه ويقدر عبقريته الفذة ، ولم يجد بدا من ان يخبر الأم مستعطفا أن تقبل ابنها من جديد . وكتب اليها فى هذا الشأن . بينما كان رامبو مستغرقا فى نسخ قصائده على ورق تغليف ...

وجاء جواب فيتالى . انها تشترط لقبول الابن العاق ، أن يسلمه الى شرطة المدينة ، وأن يرسل عن طريقها الى شارلفيل ، عقابا له . ويرضخ ايزامبارد للأمر ، فيطلب من رامبو مرافقته الى أول مخفر فى « دوى » ويسلمه للسلطة فى كثير من الحزن والاسى .

ويمضى رامبو فى اطراقة المحكوم عليه بالاعدام .. ولكنه يفاجأ فى شارلفيل ، بتبدل عجيب فى موقف أمه . فقد استقبلته فى حنان وحب . ولم توجـــه اليه أية كلمة تأنيب ، بل كانت تنظر اليه بطرف عينيها ، وتشعره بحبها وعطفها وصفحها عنه . ولم يأبه رامبـــو بهذا التغير المفاجىء ، بل لبث كما كان ، متبرما ضجرا بجو شارلفيل . وكتب الى ايزامبارد :

« لقد دخلت شـــارلفيل بعـــد أن غادرتك بيوم . واستقبلتنى أمى فى رضى . وها أنا فى المنزل يحيط بى فراغ كبير ، أمى تقول انها لن ترسلنى الى المدرســة الا فى كانون الثانى .. » و . . . .

« اننى أموت و « اتفكك » فى هـــذا الجو من الهم والفساد والبرودة . ماذا تريد أن أفعل ؟ ما زلت مصرا فى عناد على عبادة الحرية الطليقة ... كان يجب أن اعود أدراجى فى اليوم نفسه ، لو كنت أستطيع ذلك ، كنت ارتدى ثيـــابا جديدة ، وكنت أستطيـــع أن ابيع ساعتى ، ولتعش الحرية ! ولكنى بقيت هنا ، وأريد أن أسافر مرات كثيرة ... قبعتى ومعطفى ، ويداى فى جيبى ، ولأنطلق . ولكننى سابقى ، سألبث حيث أنا ، لم أعد أحدا بذلك ، ولكننى أفعل هذا لـكى أستحق عطفك . لقد قلت لى انت شيئا من هـــذا . وسوف أستحق هذا العطف .

« ان عرفانى لجميلك لا أستطيع التعبير عنه ، فى أى يوم ، وسوف أؤكده لك . انه يتعلق بأن أصـــنع شيئا من أجلك أضحى بحياتى فى ســبيله ، وأعدك بذلك » .

ووقع الرسالة : « الذى لا قلب له : رامبو »

وقضى رامبو اياما مثقلة بالملل والسأم فى شارلفيل. ولم يكن له من سلوى غير القراءة ونظم الشعر، والقيام بنزهات طويلة مع صديق له من عهد الدراسة هو « ارنيست ديلاهاى » — وهو الذى قدر له أن يكتب شيئا ذا شأن عن حياة رامبو فيما بعد — وكانت احاديثهما تتناول الشعر الحديث وانباء الحرب .

وكان الالمان قد وصلوا الى مقربة من شارلفيل ، فاضطر قائد الحامية فى المنطقة الى احراق كثير من الغابات والاشجار المجاورة من أجل الدفاع عنها . واشتغل سكان شارلفيل ، و «ميزبير» مع الجنود فى قطع الاشجار ، وتخريب الطرقات ، وكان رامبو يشهد مصير هذه المناظر الساحرة ، مرتع خياله وأحلامه ، فى حزن لا نهاية له . وكان يتجول مع صديقه فى البساتين المخربة ، وهو واجم مضطرب ، وفى أحد الأيام قال لديلاهاى :

« هناك تدمير ضرورى لا يؤسف له . أشجار هرمة اخرى يجب ان تقطع . ظلال هادئة كثيرة فقدنا حبنا لها وايناسنا بها . هذا المجتمع نفسه سوف تمر عليه الفؤوس والمناجل ، سوف تباد الثروات الطائلة ، وتسحق كبرياء الافراد ، لن يبقى بعد ذلك الا الطبيعة الفاتنة » ...

وكانت المعارك تقترب يوما بعد يوم من المدينة ، وأصبحت الحرب الشغل الشاغل لجميع سكان المنطقة وكان رامبو يقضى نهاره متجولا ، غليونه فى فمه ، متأبطا فلوبير ، أو ديكنز ، أو ليكونت دى ليل . وعند المساء كان يكتب أو ينسخ قصائده ، ليرسلها الى صحيفة يسارية صدرت حديثا هى « تقدم الآردن »

وكان يكتب مقالات نثرية يتهجم فيهـــا على بسمارك « هذا العجوز الاعجم الذى ينحنى وهو سكران ، على خارطة فرنسا » .

وكان فى نفس الوقت يشتم الامبراطور نابليون فى احاديثه ، ويصب جام غضبه على الغزاة الذين لايرحمون والمغلوبين الذين فقدوا الشجاعة .

« ذلك ان الامبراطور ، ثملا من اعوامه العشرين فى الاستهتار ،
« كان يقول لنفسه : سوف أخمد شعلة الحرية ،
« كما اطفىء فى هدوء شمعة ملتهبة »

« ولكن الحـرية بعثت وعاشت ، والامبراطور مهــدد بالاسقام » .

وفى هذه الاثناء نظم رامبو احدى روائعه « الراقد فى الوادى » وهى من أشهر شـــعره ، وفيها يصور ذلك الجندى الذى يرمز الى الانســـان ، وهو فى حضـــن الطبيعة .

« . . . . مبتسم
« كما يبتسم طفل مريض . انه مستغرق فى ســـنة من النوم
« أيتها الطبيعة ، هدهديه بالدفء ، فان البـــرد يؤذيه ..
« والاشذاء لا تنعش خياشيمه بأريجها المثير ..

« انه ينام تحت نور الشمس ، يده على صـــدره الهادىء ..
« وفى جانبه الايمن جرحان قانيان ... »

ويسيطر على رامبو شعور عميق بالحقد على الطغاة ، الذين جعلوا كل انسان مهددا بأن يكون كهذا الجندى

المضرج بالدم فى قلب الطبيعـــة التى تنبض بالحيـــاة والجمال ، ويتحول هذا الحقد الى رحمة ومحبة لأبناء الشعب البؤساء ، فكان يتنقل بين أزقة الاحياء الفقيرة ، ويستعيد صداقته القديمة مع صبية المدينة ، ويلتمس ودهم . وفى ظلال هـــــذه الاجواء كتب قصيدة « المشدوهين » ، عن شحاذى شارلفيل الصفار :

« يا للبؤس ، خمسة من الصفار ، جاثمون
« يتأملون الخباز وهو يصنع
« الخبز الثقيل الاشقر ..
« يرون الذراع القوية البيضاء ..
« وهى تدير العجين الرمادى ،
« وتقذفه فى فوهة الفرن المشتعلة ..
« ويسمعون الخبز الجيد وهو ينضج ..
« والخباز بابتسامته العريضة ..
« يترنم بلحن قديم » ...

وتدخل القوات الالمانية ميزبير ، وتقذف مئات القنابل على شارلفيـــل ، ويعيش الســـكان فى جو من الذعر والخوف طوال ليال عدة ، تغلق خلالهـــا المنـــازل من الخوف . ويحول ذلك بين رامبو ونزهاته اليوميـــة ، فيزيده هذا ثورة ونقمة . ولكنه رغم معارضات أمه ، يخرج خلال فترات طويلة ، ليلتقى بصديقه ديلاهاى .

وتقع قنبلة على منزل ديلاهاى نفســـه ، فيحترق المنزل ، ويضطر الصديق الطيب الى السفر الى ضاحية قريبة ، فكان رامبو يذهب اليه فى كل يوم ، قاطعـا مسافة طويلة ، بين الثلج والوحل ، وتخريبات الحرب ، لكى يصل الى صديقه . وازدادت الاحوال سوءا يوما بعد يوم ، والهموم تغمر رامبو من كل جانب . ضيق



« رامبو فى السادسة عشرة »
عن ارنيست دبلاهاى

فى المنزل ، وقلق وبؤس فى المدينة ، والطبيعة التي كانت عزاءه الوحيد .. مخربة شوهاء ، ولم يجد أمامه الا القراءة ، فانكب على مكتبة المدينة ، يطالع فى هذه المرة مؤلفات جان جاك روسو ، وهيلفيثيوس وكان يضايق موظفى المكتبة بطلبه الملح السريع للكتب . وكان أكثر رواد المكتبة من الشيوخ الذين - كما يقول فى قصيدة نظمها عنهم - بعنوان « القاعدون » :

« طعموا فى غمرة من الحب المصروع
« هياكلهم الجامحة بهياكل مقاعدهم
« هذه الهياكل السود ..
« وأرجلهم ذات المكازات الكسيحة
« متصالبة فى الصباح والمساء ..
« . . . . .
« أوه ، لا تدعهم ينهضوا ! انه الطوفان .. »

وفى أحد الايام دخل رامبو المكتبة ، وهو يصيح :
« لقد أخليت باريس . وفتحت أمامه أبواب الامل . فقد انتهت الحرب ، ورضخ الامبراطور « الجبان » امام « جبروت » بسمارك ، ولكن رامبو كان فى واد آخر، الحرب لم تكن قضيته ، بل الحرية : حرية الحياة والشعر ، حرية الحواس والروح . وعاودته من جديد فكرة الرحيل عن هذا الجو الباعث على السأم المثقل بالقيود، وقد أصبح الرحيل ممكنا ... وفى هذه المرة كانت وجهته باريس ، هذه المدينة العريقة التى بدت له الآن باب العالم

« سوف أكون الطفل المهجور على الرصيف المؤدى الى البحر الكبير ..
« الفارس الصغير المنطلق فى طريق يمس جبهة السماء ... »

ذات العينين البنفسجيتين

« ومن ثم يا للياس !.. لقد
شرقت فى كآبة الليل العاشقة »

رامبو - صحارى الحب

فى ٢٥ شبــاط من عام ١٨٧١ ، هرب رامبـو من شارلفيل للمرة الرابعة ، كان قد بلغ السابعة عشرة من عمره . لكنه كان لايزال فى مظهر التلميـذ الشرير المهمل غير أن سمات وجهه قد ازدادت قوة وتحديا ، ورفت فى عينيه الزرقاوين هموم بريئة ، واصبحت خطاه أكثر هدوءا واتزانا ، وكانت تصحبه فى هذه المرة فتاة نحيلة سمراء ، لا يعرف عنها احد شيئا ، ولم يكن لديهما من المال ما يكفى اجرة القطار ، فبـاع رامبو ساعته فى المدينة ثم ركب القطار مع فتاته المجهولة الى باريس . ويروى « ديلاهاى » ان الهاربين ، وصلا الى باريس وهما فى أشـد حالات التعب والجوع ولم يكن لديهما مال يكفى لأن ينزلا فى فندق ، فقضيا الليل على مقعد عريض فى أحد الارصفة . وعند الصباح أفاقت الفتاة باكية وطلبت من رامبو أن يعطيها ثمن تذكرة فى قطار الشمال قائلة ان لها أقارب فى احـدى ضـواحى باريس تستطيع الالتجاء اليهم . وعندما سافرت جلس رامبو فى طرف المقعد واستغرق فى البكاء ...

من هى هذه الفتاة ؟ هذه المغامرة القصيرة فى حيـاة

رامبو ما تزال سرا غامضا يكتنفه الابهام العجيب .. كل ما عرف عنها ان حبا خفيا قد نشأ بين رامبو والفتاة وانهما وجدا الفرار خير ملاذ لهذا الحب . أما هى فلعلها احدى فتيات الحى وقد رضيت ان تهجر أهلها وتصحب هذا الفتى الوسيم المتوقد الى العاصمة ، ولكنها ما لبثت ان ندمت وآثرت تركه .

ولعلها تلك التى نظم رامبو من اجلها قصيدته المشهورة « الاحرف الصوتية » واشـار فيها الى اشراق عينيها البنفسجيتين . والواقع ان رامبو نفسه ، كان يخاف من هذه الذكرى . يقول الكاتب بيير بيركين :

« ان رامبو لم يكن ليحب أن يشار الى هذا الحب القصير المؤلم ، فبعد سنوات من هذه الحادثة ، كنت معه ذات مساء فى مقهى « دوتيرم » فى شـارع الغاب الصغير بشارلفيل ، وهو مقهى قليل الرواد ، ما عدا يوم الاحد . فى ذلك المسـاء كان رامبو مستغرقا فى الصمت ويكاد لا يجيب على أسئلتى ، وكان يبـدو أن ذهنه يعمـل بصـعوبة ولـكى أبدل الجو قلت له :

« حسنا .. اين غرامياتك ؟ .. هل اتتك أخبـار من الصغيرة ؟ .. » فثبت أنظاره فى عينى بنظرة حزينـة بعثت فى الاضطراب . قال لى : « صه ! أرجوك » ، وأسند مرفقيه على الطاولة ووضـع رأسـه بين يديه واخذ فى البكاء ، ولن أنسى ما حييت هـذا المشـهد الاليم . وعند السـاعة التاسـعة نهض وهو يقول : « فلنذهب » ورافقته حتى مدخل غابة هافيثير ، على بعد كيلومترين من المدينة ، وشد على يدى مودعا دون أن يقول كلمة وشعرت بأن الانتحاب يختنق فى صدره ،

ثم سار فى طريق قرب الغابة ومضت خمسة أيام لم اره خلالها » .

« وبعد موته بقليل ، كنت أتحدث مع أخته ايزابيل ، وذكرت لها هذه الحادثة ، ولم تكن تعرف عنها شيئا فقالت : « ان هذا يفسر لى تلك الجمل الغامضة التى كان يهذى بها أحيانا قبيل موته » .

على انه مما لا ريب فيه ان قصة هذه الفتاة ، هى قصة الحب الاول عند رامبو . ويبدو ان هـذا الفتى المراهق ، قد عانى فى علاقته مع هذه الفتاة الغامضة ، اولى تجاربه العاطفية ، وكان نصيبه الفشل . ولعل تلك الاشارات العابرة عن خيبته مع النساء لم تكن الا صدى لهذه الحادثة . فهو يكتب صفحات فى « صحاوى الحب » انها : « لم تعد ولن تعود أبدا تلك المعبودة التى جاءت الى . حقا ، لقد بكيت فى هذه المرة أكثر من جميع أطفال العالم » .

ولكن هذه الصفحة من حياة رامبو تطوى الى الابد حاملة فى طياتها جانبا من تجربته الداخلية كان له أعمق الاثر فى حياته ...

ثائر في أرصفة باريس

« هذه المستنقعات الغريبة ... »

رامبو – فصل فى الجحيم

وها هو ذا الآن وحيد فى باريس ، ثائر ، جائع فوق الارصفة ، لا مال ولا طعام ، ولا رفيق ، يقتحم نفسه الحزينة صخب الشوارع وضوضاء الناس من كل جانب فيسير على غير هدى من رصيف الى رصيف دون أن يعرف أين تسير به قدماه ويتذكر أمام متاحف الاوديون أن احد معارفه أعطاه عنوانا لرسام كاريكاتورى هو « اندريه جيل » فيقصد الى منزله فيرى بابا مفتوحا فيدخل ، ويرى نفسه فى المرسم ، وكان الرسام خارج المنزل . ويرى رامبو أريكة فى آخر المرسم فيرتمى عليها من شدة اعيائه ويستسلم للرقاد . وعاد « اندريه جيل » عند المساء فدهش أمام هذا اللاجيء الصغير ، الذى تصرف كأنه فى منزله وأيقظه قائلا :

— من انت ، وماذا تفعل هنا ؟

واستيقظ رامبو . وقال وهو يفرك عينيه :

— انا جان ارثور رامبو ، كان عليك الا توقظنى لاننى كنت أرى احلاما جميلة ..

فضحك جيل وقال له :

— وانا ايضا احب الاحلام الجميلة ولكن فى منزلى هيا .

وقبل أن يستطيع رامبو عرض مشاريعه الطويلة ، اعطاه جيل قطعة نقدية ذات عشرة فرنكات وطرده فى لطف ، وهو يوجه اليه النصائح .

وخرج الشاعر الشارد من المنزل غاضبا مغلوبا على أمره واستأنف تشرده فى شوارع المدينة الكبيرة . وهذه الفترة من حياته هي أشد مراحل هـذه الحياة القلقة بؤسا وعذابا . كان فى النهار يتنقل فى أرجاء المدينة كمتسول مهمل ، يقف أمام واجهات المكاتب ، وينظر الى الكتب المعروضة فى يأس وحنين ، وعندما يشعر بالتعب يلجأ الى الارصفة المنعزلة ، فيأخذ قسطا من الراحة ومن دفء الشمس ، وكان الجوع يفترسه يوما بعد يوم فيلجأ الى المطاعم الفقيرة ملتمسا بقايا الطعام من أصحابها وعند المساء ، كان البرد يشتد فى المدينة فينام تحت الجسور أو فى المراكب الراسية فى النهر ، قرب المواقد . وكان طوال النهار يترنم بالاشعار ويتفوه بشتائم موجهة الى هذه المدينة الجامدة .

وقضى على هـذا النحو ، خمسة عشر يوما ، كاد يموت فيها من الجوع والبرد ، ووجد نفسه مرغما على التوجه الى شارلفيل . وفى ١٠ آذار سنة ١٨٧١ ، كان فى طريقه الى مدينته .

وكانت عودة مرهقة حزينة قطعها سيرا على قدميه. وعندما دخل المنزل ، كان يسعل سعالا شديدا ويرتجف من البرد وكانت ثيابه ممزقة قذرة ، ووجهه فى شحوب الموتى وعانقته أمه فى حنان ، فقد كانت يائسة من عودته وجلس قرب الموقد ساعات دون أن يفوه بكلمة وعندما نهض لينام ، قالت له أمه بلهجة حانية : « لقد آن أن تصبح جادا يا آرثر ، كف عن هذه الاعمال المهووسة » .

وفى اليوم التالى حدثته فى أمر عودته الى المدرسة والاستعداد لامتحان البكالوريا ، وكان قد وصل الى الصف النهائى فرفض .

أشياء كثيرة كانت تعيش فى نفس رامبو تجعل كل ما سواها ، لا شأن له ولا قيمة . ان مشكلته الحقيقية لأعمق بكثير مما تتصوره أمه . انه يعانى أزمة داخلية تأخذ كل وجوده وتجعل حياته سلسلة من القلق والاضطراب لا نهاية لها .

ان نداء من أعماق نفسه يدعوه الى الذهاب ، ولكن الى أين ؟ انه نفسه لايعرف هدفا له ولا مستقرا . ولكن العالم رحيب أمامه بعيد الآفاق ، والعالم فى نظره هو الالوان الحية والاضواء المرتعشة والمسرات التى لا تنتهى ، والعالم يفتح له ذراعيه ويدعوه الى أن يملأ وجوده لحظة فلحظة بغبطته وبهجته ، وبمسرة الحب ، ذلك هو سبيل الاطمئنان والتحرر من هذا القلق الرهيب الذى يدفعه الى التشرد والانطلاق فى شعاب الارض كما لو انه يريد أن يخرج من جلده .

ولكن الغبطة التى ينشدها القلب الانسانى لا تاتى من العالم فحسب . ان ينبوعا غنيا فى النفس ، يمد وجود الانسان أبدا بعوالم عجيبة الالوان والصور . من هذا الينبوع صدرت جميع مقدسات الوجود ، منها كان الله وكانت الروح ، وهذا الينبوع يجرى فى نفس رامبو الفتى بصوت هادر يقول له :

ان اللانهاية قريبة منك ، الجمال المطلق ، والنشوة الرائعة وما عليك الا أن تهب حياتك لهذا النداء . عش بجسدك وقلبك ، يبتسم لك المطلق فى كل مكان .

« وفى ليالى الشتاء القاسية وأنا شريد على الطرقات

لا خبز ولا مأوى ولا ثياب ، كان صوت عميق يهيب بقلبي الجامد : « التخاذل أو القوة وها أنت ذا فأنت القوة ، انك لا تعرف أين تمضى ، ولا لماذا تسير ، ادخل فى كل مكان ، واستمتع بكل شيء » .

ولكن المجتمع يريد منه غير ذلك . أمه تريد له الاستقرار فى حياة المنزل الدافئة ، وأجراس الكنيسة تدعوه كل يوم الى الصلاة ، الى العودة الى أحضان المسيحية ، وصديقاه ايزامبارد وديلاهاى ينصحانه بالعودة الى المدرسة الى الكتب والمقاعد ووجوه المعلمين البليدة ، انهما ينتظران مستقبلا عظيما لهذا الذكاء المتوقد ، وهو لا يعرف ماذا يريد سوى أن يتحدى جميع هؤلاء ، ويسير فى الشعاب التى تشقها أمامه نزواته الجامحة . انه يصرخ بهم جميعا بلسان جان دارك :

« أيها القسس ، أيها الاساتذة والمعلمون ، انكم تخدعون أنفسكم عندما تسلموننى الى العدالة . فأنا لم أكن من هذا الشعب ، لم أكن مسيحيا .. اننى من أصل كان يغنى فى عذابه ، لا أفهم القوانين ، وليس لى حس أخلاقى ، اننى جامد وأنتم تخدعون أنفسكم ... »

« أجل ان عينى مغلقتان عن انواركم ... وأنتم عبيد مزيفون ... » .

ويرفض جميع نصائح الناس ، ولم يكن هذا الرفض نزوة عابرة يحاول فتى مراهق أن يفرض بها شخصيته بل كانت تعبيرا عن ثورة جيل أوربى بأسره يريد أن يفتح طريقا جديدة لحياة الانسان .. الانعتاق من كل شيء ، فى سبيل النشوة التى يهبنا اياها الاحساس بالعالم ، فى سبيل التمتع باشراق اللانهاية فى الاشياء .

ولكن هذه الازمة الداخلية التى عاناها رامبو فى عزلته

الجديدة بشارلفيل ما لبثت أن اتخذت مظاهر نضال عنيف وثورة على كل ما هو كائن واصبح ذلك النداء العميق دافعا يهيب به الى العمل . أصبح يشعر بأن له رسالة فى المجتمع ، رسالة سياسية وأدبية بكل معنى الكلمة ، وكان رغم صغر سنه ، يؤمن بأنه قادر على التبشير بدعوته والعمل من أجل تحقيقها ... ويتحدث الناس فى ١٣ أيار أن فى باريس ثورة يشترك فيها الشعب فيغادر شارلفيل فى طريقه الى باريس الثائرة بعد أن يكتب رسالة الى ايزامبارد يقول فيها :

« سأصبح عاملا ، هذه هى الفكرة التى تملكتنى عندما دفعتنى الاحقاد الجنونية الى معركة باريس حيث يموت كثير من العمال ، بينما أنا أكتب اليك .. »

يبدأ سفرته سيرا على الاقدام ، ولم يكن لديه شيء من المال ، ولكنه كان قد أتقن صنعة التشرد جيدا . وأصبح يستطيع الذهاب الى كل مكان مهما تكن الظروف قاسية عليه . فلا يكاد يرى نفسه خارج المدينة حتى يتعلق باحدى العربات . وما يلبث أن يتعرف الى صاحبها . ويتبادلان الاحاديث السياسية والقصص ، ووصلت العربة الى احدى القرى المجاورة فودع رامبو صاحبها شاكرا ، وانتظر عربة جديدة . وفى المساء كان ينزل نفسه ضيفا على الفلاحين . أو ينام مع عمال الطرق ... وكان يسامرهم حتى المساء بحكايات غريبة يبتكرها لهم ويحدثهم فى حماسة وانفعال عن أفكار روسو وبابوت ، والحركات الاشتراكية فى باريس .

فى ذلك الحين كانت فرنسا بعد انكسار حرب السبعين فى أزمة صعبة . كان الشعب ناقما على الامبراطور نابليون الثالث بسبب استسلامه للألمان وضعف سياسته

وكانت افكار الثورة الفرنسية ما تزال تنمو وتحيا فى دعوات عدد من الكتاب الاشتراكيين الذين كانوا يغرسون بذور الحقد الطبقي من جديد فى نفوس الشعب ، وكانت اسماء فوريه وسان سيمون ولوى بلان ، وبابوف وكارل ماركس ، وبرودون ، تسمع فى كل مكان حاملة معها فكرة قلب الاوضاع الراهنة السياسية والاجتماعية ، وتحقيق الفردوس المنشود على الارض وكانت الطبقة المثقفة فى فرنسا تعتبر الامبراطور نابليون الثالث وطبقة النبلاء ومن يلوذ بهم من الاثرياء ، تعتبر جميع هؤلاء اعداء الشعب والمعرقلين لتحقيق الافكار الاشتراكية ، وكان هذا النزاع الطبقي يتمثل من الناحية السياسية فى انقسام فرنسا الى قسمين : ملكيين ، وجمهوريين . وكانت خيبة نابليون الثالث فى فرض حكم دكتاتورى مطلق ، وفى حرب السبعين بعد ذلك بداية لتصادم الفريقين ، ففى الوقت الذى استسلم فيه الامبراطور بعد معركة سيدان وتوج الامبراطور غليوم الثانى فى قصر فرساى ، وكانت الجيوش البروسية تحاصر باريس ، قام الجمهوريون تسندهم جميع العناصر الاشتراكية بحركة تزعمها « غامبيتا » ضد تصرفات الحكومة اعلنوا فيها استمرار القتال وانشأوا حكومة الكومون الوطنية فحدثت بينها وبين الملكيين معارك عديدة كانت على اشدها عندما وصل رامبو الى باريس

عندما وصل كانت حوادث الكومون تلهب خياله الثائر وكانت اشباح الثورة والدم تملأ كل تفكيره ، وكانت باريس نفسها شعلة من نار . وتوجه فورا الى مكاتب التطوع التى انشأها الجمهوريون وقدم نفسه متطوعا عن الضواحى فقبل رغم صغر سنه . وشهد

فى اليوم نفسه معركة نشبت بين جماعة الكومون وبين أنصار الامبراطور استعملت فيهـــا الرشاشات . ولجأ المتطوعون الى ثكنة للتدريب ، وقضى رامبو اياما بغير سلاح ، ودون أن يسمح له بالخـــروج من الثـــكنة . وفى ١٦ ايار ١٨٧١ بدأت معارك طاحنة بين الجمهوريين والملكيين قتل فيها عدد كبير من العمـــال . وارتكبت فيها اعمال وحشية ، ودامت اسبوعا كاملا سـمى « الاسبوع الدامى » ترك فى نفس رامبو مرارة الخيبة وبدد كثيرا من حماسته .

لقد كان الجميع على جانب من الوحشـــية فى قتل الناس والاعتداء عليهم وخيل اليه ان الثورة الفرنسيـة بنفسها لم تكن الا قصة تروى . لقــد جاء الى باريس لكى يكون عاملا يناضل مع أبناء الشعب البؤســاء من أجل الحرية والحياة الكريمة ، ولكنه يرى المعـــــارك تدور لـكى تسحق ابنــاء الشعب وحدهم . فتحز فى نفسه هذه الصور المريعة التى تثيرها ويكتب قصيــدة « القلب المسروق » :

« عندما تنضب مظاهر زهوهم
« فماذا يعملون . أيها القلب المسروق
« ستكون ثم شهقات مخمورة
« عندما تنضب مظاهر زهوهم .. »

وفى احـــدى الليـــالى القمراء ، بينما كان الجنود يسمرون فى الثكنة يلف رامبـــو نفســـه بمعطف قديم ويخرج هاربا ويمشى طوال الليل وعنـــد الفجر يرى نفسه على طريق شارلفيل ، ويصل اليها بعد أيام وقد تمزقت ثيابه وتجهم وجهه وامتلكته سورة من الغضب والحقد ، وكتب قصيدة ثائرة بعنوان « مجون باريس » :

« .. ها هى ، أيها الجبناء ...
« الشمس تمسح برئتيها الحارتين
« الشوارع التي ملأها البرابرة ذات مساء ،
« ها هى المدينة المقدسة ، جاثمة على الغرب
« ان احشاءكم لتسيل بالعار أيها الظافرون
« استنشقوا أسمى أنواع الغثيان
« بللوا بالسموم القوية ، حبال أعناقكم
« أن الشاعر ليضع يديه المتصالبتين على رقابكم
الفضة كرقاب الأطفال
« ويقول لكم : « أيها الجبناء ، كونوا مجانين ..
« وأنتم من مرضى ومجانين ، وملوك وحمقى
« ماذا يمكن أن تفعل لباريس البغى
« نفوسكم واجسادكم ، سمومكم ومفاسدكم
« لسوف تنفضكم عنها ، أيها الفاسدون الكوالح »

الموت للبورجوازية والكنيسة .!

« الدم الوثنى يعود ... »

رامبو – فصل فى الجحيم

ووصل رامبو الى شارلفيل وهو فى أشـــد حالات الانفعال والاسى ، كان يخيل اليه ان جميع السبل قد سدت أمامه ، انه فاشل فى جميع محاولاته ، لم يستطع أن يكون كاتبا أو صحفيا . وفشـــل فى اقناع الآخرين بشـــاعريته الفذة ، وفشـــل أخيرا فى أن يكون ثائرا ومحررا لأبناء الشعب وامتلكته مرارة قاسية وضجر لا يحتمل . وبعثت مشكلة حواسه وعواطفه. واستيقظ فى نفسه من جديد نداء المجهول الكامن فى قرارة الاشياء وفى روح العالم ..

ويتحول رامبـــو من جديد الى جمـــال الطبيعة فى مدينته ، فيكثر من النزهات يستغرق خلالها فى أحـــلام عذبة ، عن رحلات شاردة فى بلاد أخرى يتألق فيها نور الشمس ، ولا تعرف سماؤها الغيوم التى تثقل فضاء شارلفيل .

وفى أحد الايام ، وبينما كان خارجا من المنزل يلمح فى النافذة المقابلة فتـــاة سمراء جميـــلة تنظر اليه فى فضول ، فتكون حادثة صالحة لملء هـــذا الفراغ الذى يشعر به ، ويتبادلان تحيات الصـــباح ، وتنمو بينهما

مودة هادئة ، يبدؤها رامبو بارسال قصيدة غزل من الشعر الغنائى ، ويستطيع ان يظفر منهـا بموعد فى ساحة المحطة .

ويذهب الفتى العاشق الى لقاء فتاته وصدره يجيش بالاحلام العذاب ولم ينتظر طويلا اذ ما تلبث الفتاة أن تأتى مرتدية ثيابا أنيقة تلفت النظر وقد اصطحبت خادمتها ويبتسم لها رامبو ، ويخف للقائها ، ولكنها ما تكاد تلمح ثيابه المهملة وحذاءه القذرة ، وشعره الاشعث الذى يغطى أذنيه حتى تشيح عنه ، وتمر بقربه دون أن تكلمه ، بل تنظر اليه فى احتقار وتبتسم فى سخرية . ويفاجأ رامبو بهذا اللقاء الفاشل ، فيلبث مشدوها لا يصدق ما يرى وينظر فى انكسار وأسى الى موكب حسنائه المترف وهو يتوارى ..

فى ذلك اليوم لم يستطع الرقاد ، بل بقى فى الشوارع هائما على وجهه حتى ساعة متأخرة من الليل ، وعندما عاد كتب قصيدة غنائية باسم « عشيقاتى الصغيرات » :

« عشيقاتى الصغيرات
« كم أبغضكن
« فلتغطين بالاقنعة المحزنة
« اثداءكن الدميمة
« ولتقرعن ساحات عاطفتى القديمة
« بأرجلكن الراقصات
« هيا اذن ... وارقصن
« هنيهة من أجلى
« أود أن أحطم خصوركن
« لأنها أحبت ... »

وبهذه الحادثة الصغيرة ينبتر كل ما بينه وبين المجتمع

الى الابد . واصبح ثورة عاصــــفة على كل شيء . ان خبرته القصيرة فى الحياة قد غرست فى نفســـه روح الـكراهيـــة والتمرد ، من الجو العـــائلى البغيض ، وقيود المدرسة البليدة ، الى طغيـــان الحكام والاثرياء واحتقار الـكتاب له واصـــحاب الصــحف الى ثورة الشعب الفاشلة فى باريس والى هذه الخيبة المريرة فى حادثتين غراميتين قدمتا له أسوأ صورة عن النساء ، واخيرا هذا الفقر المدقع الذى يدفع الآلاف من جمـــاهير الشعب الى المرض والموت .

ونشـــأ فى اعماق نفســه ايمان بأن العـــالم فى انهيار مخيف ولـكن أجراس الـكنيسة ما تزال تدق داعيــة سكان شارلفيل الى الصلاة ، واثرياء المدينــة ما زالوا يتـــأنقون ويركضون وراء الثروة بوجوههم البليــدة ونفوسهم الوقحة والعمال ما زالوا يهرعون فى الشوارع بثيابهم الرثة كأنهم مدانون الى الابد .

ويبدو رامبو وكأن العالم بأسره يقف فى وجهه وان شارلفيل ببلادتها ورتابة الحياة فيها تريد أن تسحقه وتطفىء هذه الجذوة الملتهبة فى نفســه ، فيعلن ثورته على المدينة بسلاح أشد ضراوة من النار : « الشعر » ويضع هدفا لثورته البورجوازيين والـكنيسة .

وفى تلك الفترة من حياته كان يسير فى شوارع المدينة بثياب قذرة ممزقة ، وشعر طويل أشعث وفى احدى يديه كتاب أو دفتر وفى فمه غليون فارغ ويتنقــل بين المقاهى والحانات وهو يشتم أثرياء المدينـــة البلداء ، وأصحاب المعامل الوقحين ، والرهبان الذين يحملون جميع آثام الارض ، ورجال الحكومة الاوباش ، ورئيس الجمهورية الجبـــان ... وكان المتشردون فى المدينـــة

والعمال يستمعون اليه بين التـــأثر والشـــفقة وأولاد الاثرياء يمشون وراءه وهم يضحكون واحيـــانا يرمونه بالحصى وكثيرا ما كان يكتب على باب الكنيسة بالطباشير شتائم بذيئة وتجديفا على الله ... لقـــد كان رامبــو نموذجا رائعا لمجنون لا يفهمه أحد ..

ولكن البورجوازيين فى المدينـــة كانوا يفهمونه حق الفهم . ان اللهجة التى كان يتحدث بها معروفة فى فرنسا، وكانت ترتعد لها فرائصهم ، لأنها لغة الثورة التى أجرت نهرا من الدماء ذات يوم . ولذلك كانوا يحسبون له حسابا ويقاومونه . وقد حدثوا أمه فى شأنه واتهموه بالجنون ، وأمه نفسها تخاف أن يؤذوه ولـكنها كانت قد فقدت كل سلطان عليه

وبعد أيام كتب قصيـــدته المشهورة : « الفقراء فى الكنيسة » :

« رائحة الشموع تشبه أرج الخبز العبق
« والفقراء ــ سعداء ، مهملين كالكلاب المضروبة ــ
« يمدون الى الله الطيب ، حاميهم وسيدهم ،
« أذرعتهم المضحكة العتيدة
« للنساء يجب أن تكون مقاعد ملساء
« بعد الايام السود الستة التى عذبهن فيها الله
« وهن يهدهدن فى فراء غريبة
« أنواعا من الاطفال يبكون حتى الموت ،
« وفى الخارج ، البرد والجوع ، والانسان المتخم ..
« حسنا ، ساعة واحدة تمضى
« ومن ثم ، الشرور التى ليس لها اسم .. »

هذه الفمرة المحمومة من القلق كانت محنة مدمرة حياة رامبو ، لقد كانت ثورة شاملة ليس لها هدف

الا هدم كل ما هو كائن من أجل شيء لا يعـــرفه رامبو نفسه ولا يســـتطيع أن يمتد ببصره اليه . انه يريد تحطيم الاسرة والدولة والدين والوطن من أجل بنـاء جديد للعالم لم يتوصل الى صورته بعد . ولكن خليجا آمنا يبدو له من خلال هذه العاصفة الهوجاء تطمئن اليه نفسه وتركن انفعالاته ، هو الشعر .

ان عالما جديدا من اللفظ والموسيقى والاحســـاس ينبسط امامه ويعلمه اســـلوبا جديدا للحياة الحقة . وفى الشعر تجد ثورة رامبو منفذا لها وميدانا خصبا لم تجدهما فى المجتمع وفى الدين . وخلال ايام قليلة من أواسط ايار عام ١٨٧١ وضع قاعدة لنظرية فى الشعر كانت مرحلة جديدة فى تاريخ الادب الفرنسى .

رامبو الشاعر البصير

« ... وجدت فوضى روحى شيئا مقدسا .. »

رامبو ـ فصل فى الجحيم

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كان الصراع على أشده بين ثلاثة من الاتجاهات الادبيـــة يريد كل منهـا أن يفرض أسلوبه فى الشعر . كانت الواقعيـة ما تزال تناضل بتأثير الروح العلمية التى امتاز بها القرن التاسع عشر فى سبيل خلق أدب موضوعى ، بعيد عن نزعات الاديب وعن شخصيته . فالواقع « الخارجى » هو غاية الأدب ، وعلى الشاعر أن يقترب من العالم فى تصوير الاشياء والتغنى بها ، وكان ثمة اتجاه اكثر تعلقا بالواقع قد نشأ عن الواقعية هو النزعة الطبيعـــية ، وكانتا تقفان جنبا الى جنب فى محاربة الرومانتيكية التى كانت تعتبر العاطفة الانسانية هى الينبوع الاصيل لكل شعر، وترى أنشخصية الشاعرونزعاته وميوله وتبدلات نفسه وانفعالاتها ، هى غاية الشعر وموضوعه . ومن خلال نفسـه ، يرى الشاعر الرومانتيكى أشياء العـالم ويغنيها . من هؤلاء كان دىموسيه ودى فينى ولامارتين وفيكتور هوجو . أما الاتجاه الثالث فهو البرناســية وهى صاحبة نظرية الفن للفن ، فترى ان غاية الشعر هى تحقيق الجمال المطلق ولا سبيل الى الجمال المطلق

الا بالابتعاد عن كل ما هو شخصي مرتبط بنفس الشاعر من جهة وعن كل ما هو واقعي مرتبط بهدف علمي أو اخلاقي من جهة ثانية . ان عالم الجمال فوق كل شيء ومستقل عن كل شيء . فلا الواقعية ولا الرومانتيكية على شيء من الفن الحقيقي . ان الشاعر البرناسي هو الفنان الحق لأنه وحده ينشد الجمال ولكن كيف يتوصل الشاعر الى ذلك .. ؟ يقول تيوفيـــل غوتيه : « على الشاعر أن يحقق الجمال بمزج معقد واع منسجم بين الخطوط والالوان والالحان ... ان الشكل هو سبيل الجمال وما تقتضيه العبارة من صنعة وجهد واتقان هو كل مهمة الشاعر ، بهـــذه الفكرة كان يمثـــل كل من : تيوفيل غوتيه ، وليكونت دى ليل ، وبانفيل .. مدرسة كاملة خضع فيرلين لتأثيرها كل الخضوع » .

أمام هذه المدارس كان بودلير بموهبته الشعرية الفذة نسيجاً وحده . وقد استطاع ان يجمع التيارات الثلاثة فى جدول واحد كان يسميه « عفوية الشـــاعر » وهو يرى انه لا هدف للشعر الا الشعر ذاته . فلا عقليـة الواقعيين ولا عاطفة الرومانتيكية ولا جمال البرناسيين بمبررة على الاطـلاق فى عالم الشـــعر . ان الشعر هو الشاعر ، هو هذه الفعالية المبدعة التى تصهر العالم الخارجي والشاعر ، الموضوع والنفس ، فى خيال مبدع أشبه ما يكون بالسحر ، يضع فيه الشاعر كل ما فى كيانه من احساس وعاطفة ويشرق به على الاشياء تألقا لا يخبو ويضرب به على أوتار القلوب البشرية بأسرها ، لأنه مستمد من أعماق الوجود من الجوهر السرمدى الذى يجرى فى كل كائن .

هذا المفهوم الحى العميق للشعر كان لرامبو مفتاح

السر وقد كتب رســــالتين بين ١٣ و ١٥ آيار ، الاولى الى صديقه ايزامبارد ، والثانية الى صديق له اسمه « ديميني » وضع فيهما فلسفته الجديدة التي يسميها « فلسفة البصير » : ان الشاعر هو الذي يستشف بكل حواسه وكيانه ، ما وراء الاشياء ، هو الذي يضع يده على الجوهر المقدس في كل مظهر من مظاهر الوجود ، وينضح من اعماق نفسه موسيقى الشعر . ولا يتاح له ذلك الا اذا اصبح بصيرا ، اذا كان وجها لوجه أمام المطلق ، أمام اللانهاية .. عندئذ يصبح احســـاسه موسيقى وانفعالاته صورا ، وكلماته غناء . وتكون جميع حواسه في اتصال وتآلف ، كما لو انه عاد الى ينبوع واحد لها جميعا ، فالعين تسمع رفيف الاجنحة والاذن ترى عبور الرؤى وكل جارحة من جوارح الانســان ، تزدهر وتنتعش امام تألق الاشياء بالالوان والاضــواء والاشذاء وتفيض بالشعر .

تلك هي حقيقة لم يعرفها الشــعراء بعد . انهم ما يزالون يقلــدون « كل شيء قديم يفضي الى الشــعر الاغريقي ، والى الحيــاة المنسجمة ، ومن الاغريق الى الرومانتيكية والقرون الوسطى وجد متأدبون ونظامون »

« عند الاغريق ، كان الشعر والموسيقى ، ألحانا . اي فعلا وبعد ذلك أصبحت الموسيقى والقوافي ، لهوا وتسلية . ان دراسة هذا الماضي قد سحرت الفضوليين وكثيرون يجدون متعة في تجديد الشعر القديم ، من اجلهم فقط . ان الروح الشاملة قد قذفت في كل حين افكارها بصورة طبيعية والناس كانوا يجمعون جزءا من ثمار الروح هذه ، بها كانوا يعملون وعنها كانوا يؤلفون كتبا . هكذا كانت تسير الامور والانســـان لم يعرف

الجهد ولم يستيقظ ، أو لم يكن قد ارتـــوى من الحلم العظيـــم . وكان ثمة ممتهنـــون وكتاب . أما المؤلف المبدع ، الشاعر ، فان انسانا من هذا النوعلم يوجد قط

« ان الدراسة الاولى لمن يريد أن يكون شاعرا ، هي معرفته الخاصة ، معرفته بأسرارها ، انه يبحث عن نفسه، يمحصها ، ويمتحنها ، ومنـــذ أن يعرفهـــا .. عليـــه أن يثقفها . يبدو ذلك سهلا . ففي كل ذهن يتم تكامل طبيعي ، وكم من أنانيين يدعون انهم مؤلفون ، وهناك آخرون ينسبون الى نفوسهم تقدمها الفكرى ! ولـكن القضية أن نجعل النفس متوحشة .

« الشاعر يجعل نفسه ذلك باختـــــلال كبـــير، ومعقول فى جميع حواسه ، بجميع صور الحب والعذاب والجنون انه يبحث عن نفسه ، انه يستنفذ فى نفســه جميع السموم ويمتصها كي لايحتفظ بغير اللباب ، ويا له من عذاب فوق الوصف يحتـاج فيه لأعمق الايمان ولقوة فوق الطاقة البشرية ويصبح فيه بين المجتمع ، المريض الاكبر ، المجرم الاكبـــر ، الرجيم الاكبـــر ، لأنه يتوسـل الى المجهـــول ما دام قـــد ثقف نفسه الفنية أكثر من أى انسـان يصل الى المجهول واذا أرهق وتخاذل فى وثبته ، بأشياء غريبة وعديدة فان مشتغلين رهيبين أخر سوف يأتون ، وسوف يبدأون فى الآفاق التى انطفأ هو فيها .

« فالشاعر اذن هو سارق النار المقدسة حقا

« انه مكلف بالانسانية وحتى بالحيوانات . عليه أن يدفع الناس الى الشعور بمبتكراته والى لمســها والاصغاء اليها . اذا كان ثمة شكل لما يرجع اليه ذلك ، فعليه أن يعطى شكلا ، واذا كان من دون شكل فعلى

الشاعر ان يبتعد عن الشكل . المهم ان يوجد لغة .

« وعلى الجملة ، فانه ما دام كل كلام فكرا ، فان الزمن الذى توجد فيه لغة عامة آت من دون ريب ...

« هذه اللغة ستكون من الروح للروح ، ملخصة كل شيء ، الاشذاء والاصوات والالوان مجتذبة الفكرة من الفكرة ومعلقة المعنى بالمعنى ، عندئذ يحدد الشاعر مقدار المجهول المستيقظ فى عصره من الروح الشاملة ..

« عندئذ يكون للفن الخالد وظيفته

« وبانتظار هذا ، لنطالب الشاعر بالجديد من الفكر والصياغة ، ان جميع الاذكياء يعتقدون انه من الممكن الاكتفاء بهذا الطلب .. وليس الامر كذلك .

« ان أوائل الرومانتيكية كانوا بصيرين دون ان يولوا ذلك كثير اهتمام ، ان ثقافة نفوسهم بدات بالحوادث . قاطرات مهجورة ، ولكن ملتهبة ، تحملها فترة من الزمن ، الخطوط الحديدية .

« لامارتين يصير احيانا ولكن الصياغة القديمة قد خنقته ، هوجو كان فى مؤلفاته الاخيرة بعض البصيرة .. البؤساء هى قصيدة حقيقية ..

« موسيه هو بغيض فى نظرنا ، أربع عشرة مرة » أية سلالة متألمة تمتلكها الرؤى والاوهام وكسلها الملائكى يلعنها ! أوه ، الحكايات والامثال الباهتة ! الليالى ، رولا ، نامونا ، الكأس كلها انتاج فرنسى ، أى بغيض الى أبعد حد . فرنسي لا باريسي . انه انتاج شبيه بكتابات العبقرية الشريرة التى الهمت رابليه وفولتير ، ولافونتين ..

« الرومانتيكيون الاخر ، هم بصيرون كثيرا ، تيوفيل جوتيه ، ليكونت دى ليل ، تيودور دى بانفيل ·

لـكن ما دام البحث عن الخفى ومعـــرفة الغـــريب ، يختلفان عن أن نتناول روح الاشـــياء الميتة ، فان بودلير هو البصير الاول ملك الشعراء ، اله حقيقى ، ولـكنه عاش أيضا فى وسط فنى وصياغته الدعية هزيلة . ان ابتكار المجهول يقتضى صيغا جديدا

« .. وفي المدرسة الجديدة التى يسمونها البارناسية يوجد بصيران هما البرميرا .وبول فيرلين وهوشاعرحقيقى

« وأنا أعمل على أن أكون بصيرا

« أكتب الى سوف أحنق عليك اذا لم تفعل وبسرعة لاننى قد أكون فى باريس ثمانية أيام .. الى اللقاء » ..

ويتناول رامبو جميع القصائد التى كتبها ، فيخيل اليه انها دخيلة على مذهبه الجديد . انه لم يكن فيها ذلك البصير الذى يعبر عن احساسه بالقلق فى لغة حية جديدة ... وينكرها ، يكتب لصـــديقه ديمينى : « احرقها ، تلك ارادتى ، واعتقد انك تحترم ارادتى كما تحترم وصية ميت ، احرق جميع الأشعار التى كان من الحماقة أن أرسلها اليك خلال آقامتى فى دوى .. »

ويقضى أسبوعا محموما فى شـارلفيل ، وهو ينظم شعره الجديد ، فيكتب قصيدتين هما أروع ما كتب ، الاولى « ما يقال للشاعر عن الأزهار » والثانية « المركب النشوان » وبهاتين القصيدتين يرقى رامبو ، وهو لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، مرتبة أعظم شعراء فرنسا ، وأهدى الاولى للشـاعر بانفيل ، وأرسـلها اليه فى ١٤ تموز ١٨٧١ مع كلمة قال فيها :

« لعلك تذكر انك تلقـيت من الخـارج فى حزيران ١٨٧٠ مائة أو مائة وخمسين بيتا اسطوريا بعنـوان : « الشمس والجسد » ان ذلك الشاعر الخبيث نفسه

يرسل اليك هذه الابيات الموقعة بالاسم المستعار « السيد بافا » مع الاعتذار . انني فى الثامنة عشرة من عمرى ، وسوف أحب دائما أشعار بانفيل * فى السنة الماضية لم يكن عمرى اكثر من سبعة عشرة سنة !
هل تقدمت ؟ ..

والقصيدة بمجموعها سخرية غنائية لاذعة بالبرناسيين وبحذلقتهم الغريب ونشدانهم اللامألوف من الأسماء والتعابير وحرصهم المتكلف على تصوير الطبيعة فى دقة وأناقة يبدؤها :

« هكذا ، أبدا ، نحو الأفق الاسود
« حيث يرتعش بحر الزمرد
« سوف تتنفس فى مسائك
« الزنابق ، هذه الحقن العجيبة من الوجد

ويقول فيها :

« من قصائدك السود أيها البهلوان ،
« كم تهرب ازهار غريبة
« وفراشات كهربائية
« انظم لنا قصيدة خاصة عن مرض البطاطا .. »

أما المركب النشوان ، وهى القصيدة التى اشتهر بها رامبو ، فقد كانت تعبيرا صادقا عن نفسه . يقول جان مارى كاريه :

« وفى هذه القصيدة التى تتسع كغدير طليق الشطئان ، يتحدث رامبو بلهجة نبى ، وبرموز تزداد غنى كل حين ، وتتسع أبدا ، عن مصيره الاسطورى المؤثر .. أن يرى كل شىء ، ويحس كل شىء ، ويستنفد كل شىء ، ويسبر كل شىء ، ويقول كل شىء . ان فضوله الملتهب المتوحش يقوده أبدا الى الغريب ،

ونحو اللامنظور ، وما لاعدد له ... »

كل ذلك بلغة موسيقية جـديدة ، زاخرة بالحرارة والعنف . انها لغة البصير الخلاقة التى تنمو كما ينمو الاحسـاس ، وتزدهر مع الالهام . يقول ليون غيشـار عن هذه القصيدة : « ان المركب النشوآن تجمع جميـع أنواع النشوة ، وأدهش مبتكرات الصياغة البيانية » .

وعلى الرغم من صعوبة هذه القصيدة ، وآسـتحالة نقلها الى أية لغة اخرى ، لغموض تعابيرها ، فانه لا غنى لمعرفة حياة رامبو ، من أخـذ فكرة عنها لانها رامبو فى أوج حياته ، وفى تأجج عبقريته ..

والقصيدة صـورة رمزية لمركب يتحدث عن رحلة سحرية ينقذف فيها فى نشوة حالمة ، من دون بحارة ، عبر أنهار منيمة ، مزبدة الامواج ، عجيبـة الآفاق ، ويجتاز المركب الانهار الكبيرة ، طليق العنان ، متوجها صوب البحر تباركه العاصفة ، وتهدهده الزرقة السكرى:

« ثم غسلتنى قصيدة البحر
« وابتلّلت بلمعان النجوم
« وانطلقت متلألئا ناصعا
« لـكى افترس الآفاق الخضراء
« لأننى وأنا المركب الضائع ،
« تحت غدائر الخلجان ،
« وقد قذفته الزوبعة
« فى أثير لم تلمسه اجنحة الطير
« اننى حر طليق ، انفث الدخان ،
« ناهدا من الضباب البنفسجى .. »

ويروى المركب ما يلقى فى عرض البحار ، من صور مستحيلة الرؤى غنية الالوان ، ساحرة الى أبعد حدود

السحر ، الى أن يرى ارخبيــلا من الجزر العجيبة ، تنهار فيه جميع أحلامه النشوى :

« لكنني حقا ذرفت كثيرا من الدموع ، وكل فجر محزن
« وكل قمر قاس ، وكل شمس صعبة ..
« والحب المرير افعمني بالخدر المسكر ..
« فلترتفع عصاى ... الى البحر ..
« واذا ما اشتهيت المياه الاوروبية ، فما أحب الا تيارا اسود .. »

ولكنه يلبث حالما بالمستحيل من صور العالم وألوانه:
« فى الظلام الاخضر حلمت بثلوج تبهر الابصار
« وفي صعودى أمام عيون البحر الهادئة ،
« لثمت جريان العديد من غريب الانسان .. »

ومرت أيام وهو يتردد فى قراءة هذه القصيدة على أحد أو نشرها ، لقـــد كان يشك فى أن يفهمها النـاس ويقدروها حق قدرها ، وعادت الى نفسه روح الضجر والثورة من جديد . ويحدث فى ذلك الحين أن تطلب منه أمه البحث من عمل فى شارلفيـل ، عله يستعيد بعض هدوئه ولكنه يرفض كعادته ويكتب الى صديقه ديميني:

« منذ اكثر من سنة ، هجرت الحياة العامة من أجل ما تعرفه (أن يكون بصيرا)
« وقد أرادت أمي أن تفرض على عمـــلا دائما فى شارلفيل (الآردن) وقالت لى : تعمل أو تترك المنزل . فرفضت هذه الحياة دون أن أبدى أسبابا ، ان ذلك يدعو الى الشفقة ..

« لقد انتهى بها الامر الى هذا الحل : أى تشتهى من دون انقطاع رحيلى وفرارى ... »
وأضاف :

« أريد أن اشتغل حرا ، ولكن فى باريس التى أحبها »

وبعد أيام ارسل شيئا من قصائده الى فيرلين ، مع رسـالة طويلة ، بخط دقيق مزدحم حدثه فيهـا عن ضجره وفلسفته فى الشعر وطلب اليه ابداء رايه ..

وبعد خمســة عشر يوما جاء الرد يحمـل الجملة المشهورة التى فتحت أفقا جديدا أمام رامبو :

« تعال ، أيتهـا النفس العزيزة الـكبيرة ، اننـا ننتظرك ، اننا نريدك .. »

ولم يتردد رامبو انها الفرصة السعيدة التى ينتظرها ودون أن يتردد ، كان منذ الصباح ينتظر مرور القطار ولم تجادله أمه فى هذه المرة فهى بعد أن يئست بان تجعل منه موظفا فى شارلفيل ، أصبحت تعتبره دخيلاً على الاسرة ولـكنها اشـفقت عليه ، وطلبت اليه أن يبدل ثيابه ، وكالعادة لم تعوض عليه مالاً ، فلجأ الى صديق له يعرفه فى شارلفيل ، فأعطاه عشرين فرنكا أجرة السفر ..

وقبل أن يغادر المدينة قام بنزهة فى الضـواحى مع صديقه ديلاهاى ويروى ديلاهاى انه كان مضطربا قلقا وقد قرأ له قصيدة « المركب النشوان » قائلا :

« لم يكتب بعد شعر كهذا ، وكان يبدى خوفه من باريس ومن أدبائها « هـذا العالم الزاخر من الأدباء ، والفنانين والصالونات والاناقات ، لا أعرف كيف أمتلك نفسى فيها ، انا غير مهذب وخجول ولا أحسن الـكلام فيما يتعلق بالافكار ، لا أخاف أحدا ، ولـكن .. أواه ، ماذا أفعل هناك ؟ .. »

٢ - فيرلين

شاعران من أبناء الشمس

أيها الفانى ، ملاك أو شيطان ، بل الحق أن تقول : رامبو

متوحش فى بلاد المتمدنين

« .. فى كبرياء من هم اكثر حرية
من جميع احرار العالم .. »

فيرلين

كان فيرلين فى أوج مجده الادبى ، ولكنه على الرغم من كلّ هذا ، كان يشعر بأنه لم يهتد بعد الى أسلوبه ومذهبه وكان هذا الشعور ينعكس بشكل غريب على حياته وتصرفاته ، كان قلقا معذبا يشعر بالاغتراب بين اصدقائه ، وفى منزله . وكان يفرط فى الشراب ليخفف من سورة الانفعالات القاتلة التى يورثه اياها ، قلقه العجيب . وكانت قد مضت سنة على زواجه من فتاة صغيرة هى « ماتيلدا موتيه » وهى ابنة احد الكتبة المتقاعدين وكتب من أجلها مجموعة من الشعر باسم « الانشودة الطيبة » ولكن الخلاف ما لبث أن دب بينهما ، بسبب تصرفات فيرلين وسوء طباعه وحبه لحياة العربدة والتشرد ...

وكانت الاسرة الصغيرة تعيش فى منزل بشارع « نيكوليه ١٤ » مؤثث على الطراز القديم ، هو منزل أهل الزوجة ، وكانت ماتيلدا حبلى فى شهورها الاخيرة وكان ذلك مما يزيد مشاكل الاسرة ويدفع فيرلين الى أن يقضى معظم أوقاته فى المقاهى والحانات .. الى هذا المنزل قدر لرامبو أن يلجأ من وحشة منزله العائلى فى

شارلفيل ومن بلادة مدينته التى تبعث على السأم والملل..

ووصل رامبو الى باريس فى قطار الشرق ونزل فى المحطة فى خوف لم يعهده من قبـــل ، كان يزيده صخب الشوارع ، وتصفح وجوه المستقبلين ولـكنه لم يعرف واحـــدا منهم ، مع ان فيرلين نفسه ، كان قـــد بكر لاستقباله فى المحطة مصطحبا الشاعر «شارل كروس» ولعلهما التقيا به ولـكن ما من أحد عرف الآخر ، كان فيرلين يتوقع ان يرى رجلا ناضجا جديرا بهذه الاشعار الرائعة التى قرأها على باريس بأسرها وهو يردد : ان فى هذا الشعر جمالا مخيفا ... وكان رامبو يتوقع ان يرى فى فيرلين وجها وسيما على الاقل ، رقيقا جديرا بهذه العذوبة والرقة اللتين عرفت بهما أشـــعار فيرلين ويمضى الى شارع نيكولين ، فيدفع البـــاب فى حيـــاء ويدخل منزل فيرلين الذى كان لايزال ينتظره فى المحطة

واستقبلته ماتيلدا فى دهشة وريبـــة . أهـــذا هو الشاعر الذى تردد اسمه كالعاصفة فى أوساط باريس الادبية ، وأعجب بها زوجها كل هذا الاعجاب ؟ .. كان يرتدى ثيـــابا قصيرة كطلاب المدارس ، ولـكنها كانت نظيفة فى هذه المرة ، ولكن شعره كان مشعثا وكان فى عينيه الزرقاوين بريق من التحدى والخجل ، لم تستطع المرأة ان تقاومه ، فكثيرا ما كانت تطرق حين تحدثه ، وكان يبدو كصبى هارب من احدى اصلاحيات الاحداث وعندما انبأته ان فيرلين ينتظره فى المحطة ضحك وقال بصوت عال :

ــ آه ، فيرلين ليس هنا ، لا اهمية لذلك ، سوف أنتظره ..

وفوجئت ماتيلدا بهذه اللهجة ، فقالت له وهى تشير الى مقعد قريب :

ـ اجلس ، اذن ...

واتت بعد قليل مدام موتيه دى فلورفيل ، وهى ام ماتيلدا ، فقدمته اليها ، ولكن رامبو لم يحاول النهوض ليصافح المرأة الكهلة واكتفى بأن حدجها بنظرة ساخرة وغمغم كلمات غير مفهومة ، وجلست الأم ممتعضة ، وتبادلت مع ابنتها ابتسامة صفراء ..

وحاولت المرأتان أن تحدثاه عن أسرته ومدينتـــه ، ولـكنه كان يجيب فى اقتضاب ، ثم يستغرق فى صمت ذاهل ... وعندما دقت الساعة السابعة قالت الأم :

ـ لقد قرب ميعاد عودته ..

وبالفعل ، لم تمض دقائق حتى دخل فيرلين مسرعا ووراءه شارل كروس وصاح :

ـ أين هو اذن .. ؟ أين يختبىء .. ؟

ونهض رامبو يحيى الشاعر الـكبير الذى لم يملك نفسه عن صيحة دهشة واستغراب ..

يقول فرانسيس كاركو : ان رامبو فى تلك اللحظة بدا لعينى فيرلين كأنه طفل عجيب ساقط من كوكب متوحش ، يختلف كل الاختلاف بتقاليده ولغته عن كوكبنا هذا .. ويقول موران كان يشبه كلبا ضائعا . وكان فى عينيه المشرقتين ظمأ لايرتوى الى الحرية ، الى المطلق » .

وكتبت ماتيلدا فى مذكراتها ذلك اليوم :

« غلام كبير ، ذو وجه متورد ، قروى بكل معنى الـكلمة » . وجلس الجميع على مائدة العشاء . وكان رامبو صامتا مضطربا ، قليل الـكلام ، وكان يداعب

بين الحين والآخر الكلب الذى كان يحوم حولهم ، وأثناء الطعام سأله كروس عن أشعاره فلم يجب . لقد كان يأكل فى نهم وشراهة ، دون أن يرفع رأسه عن صحنه . وحاول فيرلين ان يجره الى الكلام ولكنه لم يستطع . وعندما انتهى رامبو من تناول طعامه ، أسند مرفقيه على المائدة وأشعل غليونه ، وابتلع بعض الدخان وحياهم ثم نهض لينام فقادته مدام موتيه الى الغرفة التى أعدت له ...

وتبادل الجميع بعد ذهابه نظرات صامتة ، وعبثا حاول فيرلين تبديد الحيرة التى تركها سلوك رامبو فى نفوسهم . وكان كل منهم يحاول أن يجد مبررا لوجود هذا الصبى المتوحش بينهم لدى موتيه دى فلورفيل والد ماتيلدا ، عند عودته ، وكان يصطاد الارانب فى النورماندى .

وفى اليوم التالى لم يبدل رامبو من سلوكه شيئا . بقيت تلك الروح الغريبة التى تنظر فى تحد عنيد الى كل أحد . وتتالت الحملات على فيرلين من المراتين . ان ضيفه العجيب سمم جو المنزل وأفسده ، وكان فيرلين يتخلص من هذه الحملات بأن يصطحب صديقه خارج المنزل ، ويرتاد معه المقاهى والحانات يشربان الخمر معا ويقومان بنزهات طويلة على ضفاف السين اذ يجالسان الادباء فى الحى اللاتينى ، وكثيرا ما كانا يعودان الى المنزل وهما يتمايلان ثملا من فعل الخمرة والدخان .

وكانت زوجة فيرلين ترقب كل شىء فى أسى وعذاب ، وفى بعض الأحيان كانت تنبه زوجها الى سوء تصرفه والى هذه السهرات الليلية التى يفسد بها « صديقه

الصغير » فيثور فيرلين ويتحول البيت الى جحيم لا يطاق ، وكان رامبو نفسه يوجه اللوم الى فيرلين وينتقده على تحمله هذا النوع من الحياة فى منزل تقليدى مترف يحمل كل ما فى البورجوازية من تفاهة.. شاعر مثل فيرلين يجب ان يكون له أسلوب آخر فى الحياة . وفى الحق ان فيرلين كثيرا ما كان يخضع لتأثير هذه الكلمات وكان يحلم بالفرار نهائيا من جو الاسرة البغيض والساعات المعربدة الطليقة التى كان يقضيها مع رامبو كانت له نوعا من السلوان والعزاء عن حياة مشحونة بالهموم والمتاعب .

ويعود موتيه دى فلورفيل فيرى البغضاء تطل براسها فى كل زاوية من المنزل . وتثور ثائرته فيفر رامبو من المنزل دون أن يترك كلمة لصديقه الحميم .

وبعد أيام يلتقى به فيرلين صدفة في شارع منعزل من شوارع باريس ، كان رث الثياب يترنح من شدة الجوع ، قد بدت على وجهه الشاحب جميع سمات الشقاء . ويلزم رامبو الصمت كعادته فيسير به فيرلين الى منزل بانفيل ويستاجر له الشاعر غرفة صغيرة فى شارع بوس ، وتنقل اليها زوجته مدام بانفيل سريرا لينام عليه . ويفاجأ الحى بمشهد طريف كاد أن يكون فضيحة ، اذ ما كاد رامبو يرى نفسه وحيدا فى غرفته

الجديدة حتى يخلع ثيابه ، ويقف أمام النافذة عاريا يلفلف ثيابه بشكل صرة ويقذف بها الى الشارع ، فيتوهم الناس أن مجنونا قد سكن فى الغرفة الجديدة ، وعندما ساله بانفيل عن تصرفه هذا قال له : « لا أستطيع أن أنام فى مثل هذا السرير النظيف بثياب مليئة بالبراغيث » . واضطر بانفيل اتقاء للفضيحة أن ينقل

سريره الى منزل كان يسكنه لفيف من الفنــانين من أصدقاء فيرلين بانفيل، منهم الشاعر شارل كروس والرسام ميشيل دلاهاى واكرم هؤلاء وفادته ولـكن حبه للعزلة وخوفه من المجتمعات الصاخبة دفعاه من جـديد الى الفرار ، وكان فيرلين قد عرف شيئا عن طباع شــاعره الشاذ فأسكنه فى منزل صديقه الموسيقى كابانير ، ولكن رامبو ما لبث أن ضاق ذرعا بهذه الضيافة فاستأجر له فيرلين غرفة فى شارع قديم ، واستأجر له أثاثا بسيطا وخصص له ثلاثة فرنكات فى اليوم . وفى هذا المكان الجديد تطمئن هذه النفس القلقة بعض الاطمئنان ويرجع رامبو الى اهتمامه العريق بالشـــعر فينظم قصـــيدة « الباحثات عن البراغيث » وهى صدى لحادثة شارع « بوس » ولعلها أن تكون أكثر قصائده تعبيرا عن مذهبه الشعرى ، التعبير عن ارتباط الحواس بايقــاع لفظى جديد تتجاذب فيه الاشذاء والالوان والاصوات على حد تعبير بودلير :

« عندما تستنجد جبهة الطفـــل المليئة بالانفعالات (الحمر)

« بسرب أبيض » من الاحلام الغامضة ،
« تأتى الى قرب سريره ، أختان كبيرتان فاتنتان ،
« بأنامل طرية » ، وأظافر من الفضة ،
« وتجلسان الطفل قرب نافذة كبيرة مفتوحة
« يغسل فيها (الهواء الازرق) فوضى من الازهار
« وفى شعره الثقيل » ، حيث يتساقط الندى ،
« تجيلان أصابعهما الدقيقة ، الرهيبة الساحرة ،
« وهو يسمع (أنفاسهما الخائفة ، مترنمة) بالنشيد

. . . . . .

« ويصغى الى أهدابهن السود (خافقة) فى السكون
العبق
« وأناملهن الكهربائية الحلوة ، تسحق بين الغدائر
الرمادية
« تحت الاظافر المترفة ، سرب البراغيث الصفار ،
« وتتصاعد اليه خمرة الكسل ...
« والطفل يشعر فى وداعة هذه المداعبات ، برغبة فى
البكاء
« تغمغم فى نفسه دون انقطاع ، وتتلاشى » ...

نحو الرمزية الحسية

« .. لقد انتزعت الزرقة من السماء .. »

رامبو ـ فصل فى الجحيم

وراح رامبو يبشر بمذهبه فى هذا الوسط الادبى الراقى لا شيء فى الشعر الا الايقاع الذى تزدحم فيـــه جميع الاحساسات ويستنــفد فيه العصــب كل ما فيه من ارهاف . ذلك سبيلنا لأن ننهل من معين الجوهر السرمدي فى الارض وان نعيش المطلق . ان اللانهاية تكمن فى قرارة الحاسة حيث تندفع جميع الاحساسات فى تيار غنى زاخر ، يهبنا النشوة الفنية الحقة ويمهد لنا سبيل الابداع . وكانت العثرة التى تقف فى طريق رامبو هى دور الـكلمات فى هذا التعبير . وها هو بعد أن أرهفت تجاربه الحسية ، وعرف شتى انواع الاحســـاسات فى ليالى باريس المعربدة ، من عبــير النســاء الى دوار الحشيش .. ها هو هذا الفتى الغض يهتدى الى ما يسميه (كيمياء الـكلمة) فيرى فى ايقاع الالفاظ الوانا ويبحث عن تعابير شعرية جديدة ... تضم شتى أنواع الاحاسيس وتكون رمزا ابديا لهـا ويكتب قصيـدته « الاحرف الصوتية » .. الالف الســوداء ، والهمزة البيضاء ، والياء الحمراء ، والهاء الخضراء ، والواو الزرقاء ...

أيتها الاحرف الصوتية سأقول لك يوما ميلادك البطيء

ويشير فيما بعد الى اكتشافه :

« اليك احدى حكايات جنونى ..

« منذ زمن طويل كنت أزهو باننى أملك جميع المشاهد الممكنة وكنت أجد شهرة التصوير والشعر المعاصرين مبعثا للسخرية .

« لقد اخترعت لون الاحرف الصوتية ، ونظمت الصنعة والحركة لكل حرف جامد وبايقاعات غريزية. اعتقدت اننى قد ابتكرت كلمة شعرية ، صالحة يوما او سواه لجميع الحواس . فى البدء كان ذلك دراسة . كنت أكتب السكون والليالى واسجل ما لاسبيل الى التعبير عنه . ذلك لا يستطيعه الا البصير ، فى كل شاعر « أنا » محدودة بالفعل الذى يقوم به ، أنا أفكر، أنا أرى ، الأنا ليست شيئا ذا شأن ما دامت مرتبطة بالرؤية والتفكير . وراء الأنا تكمن ذات الشاعر ، وهى شىء آخر . الذات ترى ولا ترى ، تحس ولا يحس بها . انها البصير الحقيقى فى كل شاعر . فيها تجتمع جميع ينابيع الارهاف والحس والابداع .

وكان فيرلين يصغى فى اهتمام وتاثر الى تعاليم رامبو رويدا رويدا ، بدأ يخضع لتأثيره كما يخضع تلميذ لنفوذ معلم ، وكانت أشعار فيرلين حتى ذلك الحين تتسم بطابع البرناسيين ، هذا الطابع الذى يهتم بالاناقة اللفظية والصور المترفة دون العناية بسحر الكلمات ، ما تنطوى عليه من عاطفة واحساس ، ويثمر هذا التبدل السريع فى شعر فيرلين فى ظلال هذه الصداقة القوية بين الشاعرين . ويبدو أسلوب فيرلين أكثر رقة وموسيقى

فى قصائده الجديدة التى كان ينشرها فى مجلة «النهضة الادبية والفنية » بعنوان «انشودة من دون كلام» ويبدو الشاعر الكبير الذى يغنى حبه لماتيلدا فى « الاغنيـــــة الجيدة » بهذه الروح التصويرية البرناسية :

« القمر الابيض
« يشرق فى الغابة
« ومن كل غصن
« ينساب صوت
« تحت الاغصان المتشابكة
« أيتها الحبيبة ... »

وقد افتتح قصـــائده الغنائية الجديدة بهذه الرقة الدافئة :

« انه الوجد المضنى .
« انه التعب العاشق
« انه كل ما فى الغابات من ارتعاشات
« من عناق الانسام
« انه جوقة الاصوات الناعمة
« تسير نحو الاغصان الغبراء ... »

وقد عبر فيرلين عن هذا التحول فى أشعاره بميـله نحو الرمزية من ناحية ، ورامبو فى طليعة الرمزيين ، ومن ناحية أخرى فى نظريته من الفن الشـــعرى التى وضعها فى قصيدته المشهورة بهذا الاسم فيما بعد :

« الموسيقى ، قبل كل شىء ...
« الموسيقى أيضا وفى كل حين ،
« ليكن بيت الشعر الذى تنظمه الشىء الطائر
« الذى تحسبه هاربا من النفس فى انطلاقه
« نحو جديد من السماوات وجديد من الحب .. »

أما تأثره بالرمزية ، فقد بدأ بدعوته فى نفس القصيدة الى التدرج فى الاحساسات وفى الغموض والاغبـــرار . وذلك ما كانت تجاربه البارناسية الموغلة فى التصــوير الدقيق الواضح :

« لاننا نريد التدرج ايضا
« وليس اللون ، لا شيء غير التدرج !
« أو ، ان التدرج وحده يزاوج
« الحلم مع الحلم ، والناى مع النفير .. »

وكان رامبو يزداد شعورا باصـــالة موهبته واتجاهه الشعري وقد اثر ذلك تأثيرا كبيرا فى سلوكه بين هـذه الجمهرة الصاخبة من الشـــعراء والفنانين فكان كثير العناد بينهم شديد المراس فى مناقشاته القصـيرة كثير الترفع والاحتقار لهم وكان فيرلين يتحمل نتائج حماقات صديقه الموهوب .

فى احد الايام دعاهما ادمون ليبليتيه ، وهو صديق فيرلين ومؤرخ حياته ، الى العشاء وقال يصف سلوك رامبو : « فى البدء لم يفتح فمه على الاطلاق ، الا ليطلب خبزا أو ماء بلهجة جافة . وبعد ذلك اثر فيه النبيذ الذى كان يصبه له فيرلين بكثرة ، فاصبح يوجه كلمات قاسيـــة مؤذية ، وكان يدعونى « محيى الموتى » لأنه رآنى مرة أرفع قبعتى أمام جنـــازة ، وقـــد دفعتنى تصرفاته الى اننى كدت أن أطرده من المنزل ، ولـكن فيرلين تدخل واعتذر عنه ، فلزم رامبو الصـــمت ، وجعل يكثر من شرب الخمر والتدخين بينما كان فيرلين يلقى شيئا من اشعاره » .

وزاره مرة فيرلين مع صديقه ديلاهاى فى فنـــدق الغرباء حيث كان يجتمع لفيف من الفنانين على راسهم

كابانير ، وكتب ديلاهاى عن هذه الزيارة ·· « رأيته متمددا على ديوان وقد استغرق فى الرقاد ، وعندما شعر بقدومنا ، نهض ، وهو يفرك عينيه كما يفعل طفل استيقظ فجأة من نوم عميق · وبدا لى ناميا ، وقد ازداد طوله عما كان عليه ، ولكن كانت حول عينيه الزرقاوين سمة سائق عربة ، وراح يشرح لنا كيف انه تناول كمية من الحشيش واستسلم للرقاد ، فى انتظار الرؤى الساحرة التى تبدو للمدمنين ولكن خاب ظنه. اذ لم ير الا اقمارا بيضاء وسوداء ، تتتابع بسرعة متبدلة ... وهذا كل شيء ... عدا آلام فى الأمعاء وصداع فى الراس شديد فاشرت عليه أن يخرج لاستنشاق الهواء النقى ، وقمنا معا بنزهة حول البانتيون ، فجعل يشير الى آثار الرصاص على اعمدة البانتيون ، بعد حوادث باريس ، ويردد فى يأس «عدم وهباء جميع الثورات الممكنة ، وحتى المحتملة » ·

وفى احد الايام تنازع فى جلسة ادبية مع المصور « ايتيين كارجا » واخذ يسخر منه فغضب هذا منه وانبه ، ولكن رامبو تناول عصا فيرلين وكانت الى جانبه وضرب بها المصور فجرحت يده ، فأخذ فيرلين العصا منه وكسرها . لقد كان رامبو مخمورا كعادته كل يوم ·

وقدمه فيرلين فى كثير من الزهو لبعض الشعراء المشهورين كفرنسوا كوبيج ، وهيريديا ، وفيكتور هيجو فاستقبلهم رامبو فى برود قريب من السخرية . ويروى ان فيكتور هيجو اطلق عليه اسم « شكسبير الصغير » فهز رامبو كتفيه دون مبالاة *

لقد حسر رامبو النقاب فى هذه الاوساط الادبية عن

طبيعته الثائرة التي هي كما يقول فرانسيس كاركود : « رفض كل ما هو كائن وعدم الاعتراف بكل ما أقره المجتمع » . لقــد كان يثبت وجــوده بنفي كل شيء ورفضه ، حتى الحب كان يعتبره دخيلا على نفســه

ولـكنه على الرغم من كل شيء قد استطاع بهذا الرفض أن يفرض شخصيته واتجاهه الادبي فكانت قصائده في كثير من الاندية موضـــع نقاش بين كبار الادباء وكانت محاربته للبرناسية شيئا جديدا بالفعل ، في تلك المرحلة الادبية حتى ان فرانسوا كوبيه كتب عنه هذه الابيــات :

« رامبو ، هذا المدخن الناجح
« يريد في قصيدة جديرة بالرثاء
« أن تكون الواو والهمزة والياء
« علما مثلث الالوان
« عبثا يسهب « المنحط » في الـكلام
« يجب أن يكون الاسلوب
« من دون « لـكن » ولا « لأن » ولا « اذا »
« أسلوبا صافيا كالفجر
« وهكذا كان البرناسيون القدامى .. » .

وفي ربيع عام ١٨٧٢ تبلغ تصرفات رامبـــو السيئة حدا يضيق به حتى صـــديقه الحميم فيرلين ويشعر رامبو نفسه بأنه قد فشل في مهمته نهائيا ، لقــد جاء الى باريس ليكسب ثقة أدباء عصره ، فيعترفون بموهبته وعبقريته ، وها هو بعد مرور ستة شهور على وجوده في أرقى أوساط فرنسا الادبية يشعر بالاغتراب والسأم فيغادر العاصمة الى شارلفيل في أوائل شهر نيســان وفي صدره أمنية تشغل كل نفسه : أن يعبــر عما لا سبيل الى التعبير عنه .

الزوج الجريح

«لهذه الرواية ؟ ان نحيا
معا ، رجلا مع رجل .. »

فيرلين

عندما رحل رامبو عن باريس ، تلفت فيرلين فوجد كل شيء خرابا حوله ، كان قلقا مضطرب النفس ، مبتعدا عن أصدقائه ، نفورا من جلساتهم الادبية ، كثير الادمان على الخمر والحشيش ، وكان يعيش مع امه فى منزلها .. كانت زوجته قد انفصلت عنه بعد أن ولدت غلاما أسماه « جورج » وكان انفصالها عنه يرجع الى رامبو الذى كان يستأثر به طوال هذه الشهور السود بالنسبة لزوجته الحزينة ، فالساعات القليلة التى يقضيها فى المنزل خلال هذه الشهور كانت مشحونة بالمنازعات التى لا تنتهى . منازعات انفجرت ذات ليلة فى حادثة قلبت حياة الزوجة رأسا على عقب ففى خلال حديث دار بينهما قبيل النوم ، جعل فيرلين يحدثها من غرابة رامبو وكيف كان يسرق الكتب من مكاتب شارلفيل ليقرأها وهو صغير بعد . وعقبت ماتيلدا على هذا الحديث بلهجة خبيثة « هذا يدل على أن صديقك قليل الظرف .. » فنهض فيرلين دون أن يفوه بكلمة وانتزعها من السرير وقذف بها على الارض وهو يشتمها ومنذ تلك الليلة وفيرلين يضرب زوجته ويعذبها كلما ذكرت اسم رامبو .

وعندما ولد « جورج » لم يبـدل فيرلين شيئا من سلوكه . بل انه عاد في احدى الليالي الى المنزل وقـد افرط في الشراب مع رامبو ، فحاول قتـل زوجته وابنه .. واضطرت الزوجة اخيرا الى الانفصـال عنه وكثيرا ما كان يتمنى استعادة الحياة الزوجية ، ولكن وجود رامبو كان يحول دون هذه الامنية . كانت ماتيلدا تشترط عليه أن يتخلى عن رامبو ، وكان رامبو نفسـه بروحه المتمردة يسخر من تعلق فيرلين بالحياة الزوجية « السخيفة » ولكن فيرلين كان يحب ماتيلدا على ما يبدو وكثيرا ما كان يكتب عنها أشعارا ، خلال هذه القطيعة :

« حزينة ... كانت نفسي ، حزينة
« من أجل ... من اجل امرأة ..
« ولم أجد عزاء ..
« منذ أن مضى عنها قلبي ... »

ومنذ أن عاد رامبو الى شارلفيل عادت الميـاه الى مجاريها ورضيت ماتيلدا أن تعود الى زوجها ولـكن ، أية عودة حزينة .. ؟ ان بذرة التشرد التي غرسـها رامبو في نفس هذا الشاعر الرقيق قد أينعت بثمار مرة سامة وهيهات أن يعرف الركون الى منزله بعد الآن !

وفي أيار عام ١٨٧٢ يجتاحه حنين ظـامىء ، الى رامبو لرؤيته والتحدث معه والعربدة الى جانبه في حانات باريس . ان هدوء ماتيلدا ، وهذا الحنان الذي تحيطه به يورثانه الملل والتفاهة . فيكتب الى رامبو طالبـا منه العودة الى باريس . وكان رامبو يعاني في مدينتـه اللعينة مرارة السأم والبطالة . وكان قد بدأ في كتابة بعض مقطوعات من كتابه « الاشراقات » وكان يرغب في أن يطلع عليها صديقه ، فلبى الدعوة على الفور ..

واستعاد الصديقان فوضى الحياة السابقة وصخبها العريق ، وسكن رامبو فى غرفة بأحد الفنادق ، وكان فيرلين لا يفارقه وبعثت من جديد هـذه الازمة القاتلة بين ماتيلدا وفيرلين . لقـد كان رامبو فى نظر ماتيلدا الشيطان الرجيم لزوجهـا الغريب الاطوار . وتحول المنزل من جديد الى جحيم من المنازعات ، حاول فيهـا فيرلين مرارا ، احراق زوجته وقتلها ، لقد كانت صلته برامبو تزداد قوة ومتانة .. صلة صداقة عميقة وحب لا سبيل الى ردعه . وكل من يقف فى وجه هذه الصلة كان يعتبره فيرلين عدوا له يريد به الشر والأذى ، كان رامبو يقول له كثيرا : « نحن من ابنـاء الشمس » ، وها هى ماتيلدا تريد ان تنتزع فيرلين من هذا الجـو « الالهى » الرائع الذى هياه له رامبو ــ كما يقول ــ ومن اجل ذلك اصبح يكن لها من البغضاء ما لايتصوره انسان . ولعل ذلك يفسر جميع تصرفاته تجاه هـذه الفتاة الحبيبة التى تغنى بها طويلا فى اشعاره الاولى .

وها هو الآن يعود الى حياته معها ، رغم كل ما يشوب حياتهما من اضطراب . ويقول « فرانسوا بورشيه » مؤرخ حياة فيرلين : « انه فى ٩ ايار عام ١٨٧٢ خضـع فيرلين خضوعا أعمى لتاثير رامبو » . فاصبح يلازمه ملازمة الظل ولا يستطيع انفكاكا عنه على الاطلاق ، مما اثار حول هـذه الصداقة تساؤلات شتى وتقولات ، كانت على جانب كبير من الاصابة والحق . هل كانت ثمة علاقة آثمة بين الشاعرين ؟ .. لقد بقيت هـذه الناحية من حياتهما غامضـة مبهمة . الى أن أماطت عنها اللثام رسالة موجهـة الى ليبيليته ، وجدت فى أوراق فيرلين وقصيدتان احداهما فى مجموعة «موازاة»

بعنوان « هذه الاهواء » والثانية فى مجموعة اناشيد دون كلام ، بعنوان « لوئى وايرابوندى » :

« لأن الاهواء المرتوية
« كانت تضع فى راسينا أعيادا
« وتعلم حواسنا ان كل شيء يبعث الاكتفاء
« كل شيء ، الشباب ، والصداقة
« وقلبانا ! ... . . . »

ويرى فرانسيس كاركو ، ان فيرلين كان يعانى فى الحق انحرافا جنسيا ، وسبب ذلك انه كان دميما ، يشك فى حب النساء له ولكن حياته العادية وزواجه من فتاة حسناء كماتيلدا أخمدا فيه هذا الانحراف . ومنذ أن تعرف الى رامبو ، استيقظ فيه كل ما هو شيطانى وجنونى « ان من يريد أن يكون بصيرا عليه أن يخرب حواسه ويحرفها » تلك هى تعاليم رامبو ... وفيرلين فى خضوعه لهذا الصديق الثائر ، كان يتصرف دون وعى ، ودون ارادة .. لانه كان يحبه حتى الجنون حبا يصفه فى احدى قصائده :

« وهذا الحب الذى كانا وحدهما يسميانه حبا ..
« هو أيضا حب حار وعاصف . . . »

ويعتقد « غوفان » وهو أحد مترجمى رامبو ، أن رامبو هو الذى كان مصابا بالشذوذ الجنسى ، ويعلل ذلك بكره رامبو للنساء بسبب نقص افرازات الغدد الهرمونية عنده ، وان رامبو فى مقطوعة « هذيان » فى كتابه « فصل فى الجحيم » يشير بصراحة الى ذلك الزوج الجهنمى الذى لم يكن يحب النساء ، والذى تقول له المرأة : « اننى افهمك » فيهز كتفيه فى استخفاف ..

ويرى جان مارى كاريه ، كاتب حياة رامبو خلاف هذا الراى فيصر على أن هـذا الشذوذ عند رامبو لم يكن الا نزوة عابرة شأن جميع تصرفات حياته ، بعكس فيرلين الذى كان الانحراف طبيعة ثانية له .

والحق ان فيرلين أحب رامبو بكل ما فى الكلمة من معنى . حبا سمه ما شئت ، ولكنه كان هوى رهيبا دمر حياته وأفسد عليه استقراره وهدوءه . ولكنه ادخله فى عالم جديد من الشعر فتحت عينيه على آفاقه انامل رامبو الشيطانية .. وبعد ذلك لم يعد فيرلين يابه بشىء .

وكان رامبو ، بروحه المتحدية الغريبة بعيـــدا كل البعد عن أن يعتبر شيئا من هـــذا جديرا بأن يهتم به ويوليه فكره . لقد كانت جميع تصرفاته تلبية لنداء داخلى يؤمن بأنه ابدا على صواب . لقد كانت اللذات البصيرة هى التى توجهه ، وتجعل منه انسانا جبـارا فوق الخير والشر ، أو مريضـــا أكبر كما يقول هو ، لا يفهم شيئا مما ألفه الناس الاسوياء .

لقد كان أبدا فى نشوة معربدة . ســـفينة سكرى لا شاطىء لها ولا مرفأ ...

وبينما كان فيرلين يعانى هذه الازمة الداخليـة التى تتنازعه فيها شتى الانفعالات ، من قصة أسرته ، الى علاقته الآثمة برامبو ، الى أقاويل النـــاس عنه وعن شعره ، هذه الازمة التى يعبر عنها بقوله :

« لقد فقدت حياتى وأنا أعلم جيدا
« ان كل تجديف على سوف يتوارى
« وعلى هذا كله لا أستطيع الا أن أحب
« اننى حقا من كوكب شرير ... »

كان رامبو مستغرقا فى حياته المتشردة المجنونة .. التجوال فى الشـوارع وشرب الحشيش والتبغ طوال النهار وشرب الخمر والعربدة حتى منتصف الليـل . ومن ثم كتابة صفحات من « الاشراقات .. » حتى الفجر

« وفى الساعة الخامسة صبـاحا كنت أنزل لشراء الخبز . والعمال يهرعون من كل مكان ، أما أنا فانها الساعة التى اذهب لأسكر فيها عند بائعى الخمور .. ومن ثم أعود الى غرفتى ، وأتناول الطعـام وأنام فى الساعة السابعة .. »

الإشراقات

« معى وحدى مفتاح هذه الجنة المتوحشة »

رامبو ــ الاشراقات

ويقضى رامبو فى باريس شهرين ، على هــذا النحو من الحياة .. سكرة ضائعة لا نهاية لها تحمله الى عالم ملىء بالاحساسات المرهفة الغريبة لا يعرف فيهــا الا همسات الشعر فى نفسه وانفاس الخمر وصداقة فيرلين

ويستيقظ فيه شعور صــوفى عريق ، ان اللانهاية تناديه وتفتح له ذراعيها ، وهو الآن بعد أن نضجت نفسه الخارقة ، ليسمع صـــوت الابدية ويرى المطلق نفسه يرف فى اشراق العالم ، وألوان الاشياء ، ان تلك الوشوشات التى كانت تهمس فى أذن أوفيليــا لحــن المجهولة ، اصبحت اليوم يدا الهية حانية ، تمسك بيد الشاعر وتقود خطاه فى دروب ذلك العالم الغنى بالالوان الملىء بالغبطــة والآلام التى تصحب ارهاف حواســه وتوقد انفعالاته . ومن هذا الفردوس الارضى ، الذى كان رامبو يسير وحيدا فى شعابه يكتب مقطوعاته الشعرية من مجموعة « الاشراقات » :

« وهذه الفتون ، لقد أخذت الجسد والروح ،

« . . . وبددت كل القوى .. »

ولــكن كل شىء هين أمام « اللانهائى » الذى يلمسه الشاعر :

« لقد وجدت
« من؟ الابدية
« انها البحر الذاهب
« مع الشمس
« أيتها النفس المشعة
« لنهمس باعتراف
« الليل المتلاشي
« وبالنهار الملتهب ... »

وهـذا الاشراق الذى يسكب فى قرارة النفس غبطة الحياة ، ما يلبث أن يتحول الى الم وظمـأ لايرتوى وحنين لا نهاية له :

« قد تكون فى انتظارى احدى الاماسى
« حين أروى ظمأى فى سكينته ،
« فى احدى المدن القديمة
« أموت وانا سعيد مغتبط
« ما دمت صابرا
« واذا ما استسلمت آلامى
« واذا ما كان لى يوما قليل من الذهب
« أفلا اختار بلاد الشمال ؟
« أو بلاد الكروم ؟ ..
« أواه ، ولـكن الحلم غير مجد ..
« ما دمنا فى ضياع محض
« فاذا ما عدت من جديد
« ذلك السائح القديم
« فان الحانه الخضراء
« لا تستطيع أن تفتح لى بابها ... »

وتبدو أجواء باريس ، يوما بعد يوم حزينة غبراء فى

عينى هـذا السائح الذى يتحرق شـــهوة للمجهول ، فتملكته رغبة هوجاء فى السفر
« ما دامت الاقنعة الاخيرة ماضية فى ايمانها
« بأعياد الليل المرحة على شاطىء البحر »

وفى ٧ تموز خرج فيرلين من منزله ليشـــترى دواء لزوجته ـ وكانت مريضة منذ أيام ـ فوجد رامبو أمام صيدلية مجاورة للمنزل ، وكان رامبو يحمل رســالة صغيرة ، لوح بها لفيرلين قائلا :

ـ كنت قادما لأعطيك هـذه الـكلمة . ان باريس تبعث الاشمئزاز فى نفسى ، سوف اذهب الى بلجيكا

فصاح فيرلين فى دهشة :

ـ كيف تذهب ؟.. اهكذا دون ان تخبرنا ؟..

فقال رامبو :

ـ حسنا ... هيا معى

فقال فيرلين :

ـ ولـكن فكر ، ياصفيرى ، ان زوجتى مريضة ، وانا خارج لأتيها بالدواء ..

فرشقه رامبو بنظرة استخفاف قائلا :

ـ لا .. دع زوجتك فى أمان ، اقول لك تعـال . سنذهب معا ...

وكتب فيرلين فيما بعـد لصـــديقه اميل ليبران : « كانت كلماته فوق كل سلطان ولم ار نفسى الا وقد تبعته ... »

وبينما كان الصديقان ، يركبان قطـــار المساء الى آراس وهى مدينة صـــغيرة على الحدود البلجيكية ، كانت ماتيـلدا المسكينة تعـانى آلام المرض ، فى انتظار زوجها الهارب وكانت اسرتها قد نقبت جميـــع بيوت اصدقائه ، ومقاهى باريس بحثا عنه ...

سأبقى مع رامبو!

« ... انك تحيا حياتي .. »
فيرلين

وصل الشاعران الى آراس قبيل الفجر . وكان فيرلين يعرف أصدقاء كثيرين وأقارب فى هذه المدينة ، ويتوقع أن يتصل بهم ليساعدوهما على اجتياز الحدود ، لأنهما لم يكونا يحملان جواز سفر ، ولكن حادثة طريفة فى حانة المحطة تفسد عليهما جميع الخطط . ويرى فيرلين ، انهما كانا مرحين فى هذه السهرة الى أبعد حدود المرح « كان رامبو يضحك دون سبب وكنت رغم الخمس والعشرين من سنى ، كطفل صغير ، سعيد بالمغامرات الصغيرة ، وكنا ننظر الى المسافرين ونسخر منهم بعبارات ضاحكة ، ولا أعرف كيف خطر لنا أن نمثل أمامهم دور شقيين خطرين هاربين من السجن ، ونتحدث بينهم عن جرائم القتل التى ارتكبناها مما دفع رجلا عجوزا الى أن يشى بهما الى رجال الشرطة فاعتقلا ، وأخذا الى فندق المدينة ، ومثل الشاعران أمام محافظ المدينة » ، ويروى فيرلين : « ان رامبو كان حزينا خائفا ، وانه انفجر منتحبا منذ أن دخل مقر المحافظ » وأما فيرلين فأبدى احتجاجه على هذا النوع من الاعتقال .. ولعل المحافظ ، وكان شابا ، قد

ضحك في سره من الاقاصيص التي ارعب بها الشاعران ركاب القطار فأمر رجال الشرطة بأن يوصلوهما الى المحطة ، ليعودا الى باريس فورا ، ويقول فيرلين :
« واعترضت على هـذا التصرف محتجا بأننا جائعان ولم نتناول طعام الفداء بعد ، فسمحوا لنا بأن نجلس في المحطة قليلا على أن نسافر عقب الفداء .. »

ودخلا الى باريس عند الاصيل ، وتسللا خفيـة في الشوارع غير المأهولة ، الى محطة الشرق ، حيث اخذا قطار سيدان السريع ، ونزلا في شارلفيل ، كلصين متخفيين ، دون أن يعرجا على شارع مادلين حيث منزل رامبو حذرا من « فم الظل » وهو اللقب الذى اطلقه رامبو على أمه . وبقيـا في شـارلفيـل حتى منتصف الليل ، ريثما استطاع فيرلين أن يتصل بصديق يعرفه اخذ على عاتقه مساعدتهما على اجتياز الحدود ، وسار بهما هذا الصديق الى سائق عربة يعرفه ، وطلب اليه أن يوصلهما الى الاراضي البلجيكية على اعتبـار انهما راهبان مسكينان .. واعطاهما قيثارة وسـاعة فضية قديمة ، وقطعة فضيـة من ذات الاربعين ، ولم تأت الساعة الثالثة صباحا حتى كانا في أول قرية بلجيكية على بعد ٥٥ كيلومترا من شـارلفيل ، وانطلقا بعد ذلك الى بروكسل سيرا على الاقدام ، وهما أشد مرحا من النسيم ، وقد أنشـد فيرلين هـذه الرحلة المرحة ، في احدى قصائده الغنائية :

« حانات مشرقة
« خمور وضجيج ..
« حالمـات عزيزات
« على جميع المدخنين

« محطات قريبة
« طرق كبيرة مرحة
« اية مصادفات سعيدة
« لهذين اليهوديين التائهين .. »

ولم يكد يستقر بهما الحال فى بروكسل حتى كتب فيرلين الى زوجته البائسة هذه الرسالة القصيرة :

« عزيزتى المسكينة ماتيلدا ..
« لا تحزنى ، ولا تذرفى الدموع ، اننى فى حلم مزعج ، سوف أعود فى يوم من الايام ...

فيرلين »

وبعد أيام كتب اليها رسالة ثانية ، يخبرها فيها عن أحواله وعن اتصاله ببعض آللاجئين السياسيين فى بروكسل ، وعن عزمه على تأليف كتاب عن الفظائع التى ارتكبها جنود الامبراطور فى ثورة الكومون ، لا ريب بتأثير رامبو ، ويطلب اليها أن ترسل له ثيابه وبعض الاوراق اللازمة من مكتبه ...

وبين هذه الاوراق تجد ماتيلدا بعضا من رسائل رامبو الى فيرلين وتفاجأ لأول مرة ، بنوع العلاقة الغريبة التى تربط بين الشاعرين . ولكن كبرياءها تأبى الرضوخ والاستسلام .. انها تريد أن تستعيد زوجها بأى ثمن ، انها تعرفه طيبا بسيطا ، شاعرا رقيقا ، بكل ما فى الكلمة من معنى ورامبو هذا الشيطان الشرير ، يفسده ويسمم حياته ، فلم لا تحاول انتزاع زوجها من هذا الشر الذى قد يدمره ، وتحزم أمتعتها وتذهب الى بروكسل فى ٢١ تموز فى قطار المساء بعد أن تخبر فيرلين بذلك ، طالبة اليه موافاتها فى فندق ليبج ، وفى هذا الفندق كان يسكن رامبو وفيرلين .

وتصل الزوجة وأمها ، فيخبرهما صاحب الفندق أن النزيلين الغريبين قد غادراه وان فيرلين سوف يعود للقائهما فى الثامنة مساء .

وتروى ماتيلدا بمذكراتها التى كانت اشبه باعترافات، انها حاولت اغراء فيرلين من جديد بشتى الوسائل ، كما لو أنهما غريبان ، فارتدت ثيابا تبرز فتنتها ، وكانت على جانب كبير من الجمال ، وتمددت على السرير فى غرفتها ، وجعلت تفكر فى اللهجة العذبة الرشيقة التى تنوى التحدث بها اليه ، لبعث الندم فى نفسه ، ويصل فيرلين حسب الموعد فتنهض للقائه ويتعانق الزوجان فى لهفة لم تكن تتوقعها ماتيلدا ، ولكنها تلحظ بعد ذلك من حديثه ، ان الندم لم يعرف سبيلا الى نفس هذا الرجل الرقيق وانه كان يعتبر جميع تصرفاته حقا له ..

وعند المساء يتناولان طعام العشاء معا ، ويقومان بنزهة فى شوارع المدينة يحاول فيها فيرلين فى مناسبات شتى ، أن يحدثها عن قوة تأثير رامبو وشدة حبه له وتعلقه به .

وتعرض ماتيلدا مشاريع رحلات واسفار ، علها تبعد عن زوجها شبح صديقه الجهنمى ، ولكن فيرلين يبدى برودة قاتلة ، وفى الليل يقضيان السهرة مع أم ماتيلدا وتحاول المرأتان اشعار فيرلين بسوء تصرفاته من طرف خفى وتغريانه بالعودة الى منزله ، وتذكره ماتيلدا ، بلهجة عذبة مستعطفة بابنه « جورج » ، وبمستقبله . وتستطيع بعد عناء أن تقنعه بالعودة معهما الى باريس ، وتعطيه ماتيلدا تذكرة السفر ، ويذعن فيرلين لدموع زوجته وتوسلاتها ، فيركب القطار

مع المراتين فى طريقهم الى باريس ، ولـكن عند الحدود يحدث ما لم يكن فى الحسبان .. كتبت ماتيـلدا فى مذكراتها :

« عندما وصلنـا الى مركز الجمارك ، نزل جميع الركاب وفيرلين معهم ولم نعرف كيف اختفى ، وعبثـا حاولنا أن نراه ، وأوشك القطار أن يسير ونحن نبحث عنه ونناديه ولـكن عبثا ...

وعندما تحرك القطار واغلقت الابواب ، رأيناه واقفا على الرصيف ينظر فى ذهول غريب فأشرنا اليه وصاحت به أمى :

ـ اصعد بسرعة ..

فصاح وهو يضغط قبعته على راسه :

ـ لا ، سابقى ..

ومنذ ذلك الحين لم أره ..

هكذا كان رامبو أقوى من كل شىء ، يقول كاريه : « أن صـيحة رامبو السحرية : الى البحـر ، الى البحر » ، كانت تملأ نفس فيرلين ، وكانت أقوى من جميع مسرات الارض .. »

أحلام في ضباب لندن

« ... وكل هذا الماضي الذي
ما يزال يلتهب في جوانحي »
فيرلين

تمضي رامبو وفيرلين طوال شهر آب ، في تشرد ونزهات لا نهاية لها ، بين الحقول وعلى شاطىء البحر ، خلال المدن البلجيكية يدخنان وينظمان أشعارا غريبة ، تفيض احساسا مرهفا بالطبيعة وبالاشياء . انه حلم رامبو الذهبي ، أن يكون حرا طليقا مع هذا العالم ، مع الاحساسات البسيطة التي تفتح له كوى لا تحصى على عالم راعش مشرق ، واتم رامبو المقطوعات الشعرية لمجموعة « الاشراقات » وفيها يمتلك أسلوبه الشعرى وتنضج تجاربه الفنية بوضع مذهب في الرمزية الحسية ، مستمدا صوره من بروكسل أحيانا حيث تبدو له المدينة :

« مقعدا أخضر تغنى فيه الايرلندية البيضاء
« على قيثارتها أغنية لفراديس العاصفة
« ومن ثم تتصاعد من غرفة الطعام « الغويانية »
« ثرثرات أطفال يلهون بالاقفاص »

أو يستنجد بأحاسيس في الحقول حيث يحس :

« حشرات الأعشاب الصافية ذات الأذرع السكثيفة الفضية

« وذهب الاقمار فى نيسان ذى القلب المقدس »

او ينشد آلام نفسه ، فى قصيدة « أعياد الجوع » :

« اذا كان فى ذوق لشيء ما ، فهو ليس ،
« الا للأرض والاحجار ..
« اى جوعى ، هذه قطرات الهواء الاسود
« وزرقة الافق ذات الالحان ... »

وفى هذه القصائد يتحول رامبو الى النثر الموقع ، ان جميع اشكال الشعر القديمة ، لم تعد تتسع لكيمياء الالفاظ العجيبة التى اصبحت فيهـا الكلمة بكل ما تحمل من غنى طوع بنانه ، وتحرر من القافية ، ومن الوزن احيانا كما فى قصـائده الاخيرة من الاشراقات « حركة » و « مشهد بحرى » و « ميشيل وكريستين »

« ... اذا الشمس غادرت هذه الضفاف ... »
« فانطلق، ايها الطوفان المشرق ، هذه ظلال الطرقات
« مع شجرات الحور ،
« تسكب العاصفة منذ البدء ، قطراتها الكبيرة ...»

وفى ٨ ايلول يصل المطاف بالشاعرين الى اوستاند ، حيث يبحرآن الى انجلترا . كتب فيرلين : « عام ١٨٧٢ ابحرت من اوستاند الى دوفر ، مساء السبت ، برفقة الشاعر الطفل « آرثر رامبو » ووصلا الى لندن بعد يومين فبدت لهما المدينـة قاتمة بليدة ، بشـوارعها المقفرة ، ومنازلها العتيقـة ، وسكانها الجامدين ذوى الذوق الفاسد ، حيث يسود المقـاهى والحانات وجوم غريب ، فلا ضحكة ولا ضجة وما من حديث جدى ..»

وزاد من سـأم الشاعرين فى لندن ، جهلهما باللغة الانجليزية والشيء القليل الذى كان يعرفه فيرلين من هذه اللغة ، لم يكن يتيح لهما الانسجام مع هذا الجو

« الانجلو ـ سكسونى » الذى يرثى له على حد تعبير فيرلين .. ولكن رامبو يجد الحل ، لا سبيل الى الحياة فى لندن الا مع الخمر ... واستغرقا فى الشراب ... وكانا يطوفان شوارع المدينة ، ويختلطان بالبحارة على المرفأ ، ويفشيان الامكنة العامة ، وهما ثملان حتى العربدة . وكثيرا ما كانا يتنازعان لأتفه الاسباب ... فيتشاجران على مرأى من الناس وكثيرا ما شوهدا وقد جرد كل منهما سكينا لطعن الآخر .

فى هذه الاثناء ، كان رامبو ، هو الذى يملك زمام الامر ، وكان يقود فيرلين ، كل يوم الى الاحياء الفقيرة حيث تنبعث أنفاس الجوع والآلام ، وحيث يتراكض الاطفال الحفاة بوجوههم الشاحبة وأذرعهم النحيلة ، فى الارصفة وتحت المصابيح ، حيث كان يستوحى رامبو مقطوعاته النثرية من الاشراقات ، فيعيش بكل حواسه عالمه الملىء المرتعش .

« واصطفق باب ..

« ومضت القوافل والفندق الساحر اقيم فى سديم من الجليد ، ومن ظلام القطب « غمغم أيها الغدير ، ويا ايها الضباب تموج على الجسر واعبر فوق الغابات ، وانت ..أيتها الاودية السوداء ، وأيتها «الارغنات» وأيتها البروق والرعود ، اصعدى وامضى ، وانت أيضا أيتها المياه ، أيتها الاحزان ، انهضى وارتفعى بالطوفان » .

وفى هذا العالم الصاخب المزمجر كان رامبو يخطو رويدا رويدا ، نحو غبطة سحرية كان العالم بأسره يشعر بها ، ويحدثه عنها ، خطوة اخرى فى اكتناه جواهر الاشياء ، وارتعاشات الضياء واللون ، وتنسم عبير الزمن ، ويصبح رامبو المتشرد بصيرا ، يصبح الفنان الحق ، الشعر لم يعد يعنيه ، انه يريد أن يكون شاعرا

فحسب ، أن يكون البصـير الاعظم ، العبقرى الذى يصفه فى « الاشراقات » ..

انه الانفعال والحاضر ، ما دام قد فتح ابواب بيتـه للشتاء المغمور بالضباب ، ولغمغمات الصـيف ، هو الذى طهر الطعام والشراب ، هو فتنة الاماكن العابرة ، والسحر الذى يسمو على البشر ، فى محطات الاسفار، انه الانفعال والمستقبل ، والقوة والحب ، اللذان نراهما ونحن وقوف فى احقادنا وسأمنا ، نراهما وهما يطوفان فى سماء العواصف ، وخلال الوية الوجد .

« انه الحب ... والابدية
« نحن نتذكره ، وهو ماض فى اسفاره
« نهاره ! انه انصهار جميع الآلام الصامتة والمتحركة
« فى أعنف موسيقى ...
« يا لخصب الروح ، ويا لاتساع الكون ... »

بينما كان رامبو منطلقا فى هذه الاجواء الفنية ، التى انهى فيها كتابه « الاشراقات » كان فيرلين قـد انهى مجموعته الشعرية « أناشيد من دون كلام » وكان قد تعرف على بعض أصدقائه من المعجبين بشعره ، منهم الرسامفيليكس ريقامى ، الذى رسم لهما صورة هزلية تعبر عن البؤس الذى كان يعانيـــه الشاعران . وكان فيرلين فى نفس الوقت ما يزال يبحث عن عمل فى لندن ، وكان يتلقى دروسا فى الانجليزية ، ويرغم رامبـو على تعلمها ، وكانا يقرآن معا ادغاربو، وروبرتسـون ويتعلمان نطق الكلمات من غلمان الحانات والباعة .

وعندما الما بها قليلا ، وجد كل منهما عملا ، فاشتغل رامبو فى أحد المحال التجارية ، بأجر زهيد ، وجعـل فيرلين يعطى دروسا خاصة بالفرنسية ، واســتقرت

الحال بالشـــاعرين بعض الشيء ، فاتصـــلا بلفيف من الطبقة المثقفة والادباء الذين بدأوا يقدرون موهبة هذين الغريبين ، ذوى الثياب المهملة القديمة .

وفى هــذه الاثناء كان رامبو يتردد بين حين وآخر على ميناء المدينة ، يسأل عن مواعيد اقلاع البواخر . ان شيطان التشرد قد استيقظ من جديد فى نفسه .

« ان فى نفسى ذعرا من جميع المهن » ...

والبحر ما زال ينادى المركب النشوان . وتملكه السأم من حياة لندن . وفى هــذه الفترة ، تستنجد « ماتيلدا » بالقضاء طالبة الطلاق من فيرلين . وتشير فى نفس الوقت الى علاقاته برامبو . وتأتى أنباء من باريس بأن قصة فيرلين مع زوجته قد توسعت الى أبعد حد ، وان خصومه يستغلونها لتشــويه سمعته ، فينهـــار فيرلين ، ويستسلم أحيانا للبكاء . ويضيق به رامبو ، ويبدو له هذا الرجل ضعيفا غير قادر على التحدى كما يجب ان يكون الشاعر « البصـــير » . فيكتب الى أمه فى شارلفيل ، طالبـــا اليهـــا المجىء الى باريس ، والكتابة اليه من حقيقة الضجة التى تثار حولهما فى العاصمة ، ولأمر ما يستيقظ حب هــذه الام لابنها ، وتعتبر نفسها مسئولة عن كرامته فتتصـــل بماتيلدا وامها ، محاولة اقناعهما بالكف عن الحملة على فيرلين . وكان رامبو قد طلب اليها أن تعرج على المنزل الذى كان يسكنه فى باريس ، لتبحث عن مخطوطة كتبها هناك ، بعنوان « الصيد الروحى » ولكنها لم تجدها ، ولا تزال — هذه المخطوطة من آثار رامبو مفقودة حتى الآن — وكتبت بهذا الى رامبو ...

وبعـــد أيام غادر رامبو العاصـــمة الانجليزية الى

شارلفيل ، تاركا فيرلين غارقا فى الديون ، تحطم نفسه الشائمات والهموم ، ووحشـة لندن فى ذلك الخريف الحزين ، الذى صور جوه فى قصـيدة مشهورة له ، أثبت فيها بيتا لرامبو « الامطار تنهمر فى هـدوء على المدينة » ومطلعها :

« تنهمر فى قلبى الدموع

« كما تنهمر الامطار فى المدينة .

« ما لهذا الضنى

« الذى ينفذ فى قلبى ... »

وكتب الى صديقه ليبيللتيه :

« اننى حزين ووحيد . رامبو لم يعـد هنا . اى فراغ مخيف يحيط بى » .

وكتب رسـالة الى امه يخبرها فيهـا بأنه مريض معذب ، ويطلب اليها أن تلجأ الى رامبو ترجوه الرجوع الى لندن . وتبكى الأم المسكينة « ستيفانى » أمام لوعة ابنها الحائر . فتذهب الى شـارلفيل ، وتقنع رامبـو بالعودة الى لندن . وتعطيه مصاريف السفر . ويلتقى الصديقان من جديد فى لندن ، ويعتب فيرلين على رامبو هذا التخلى المشين ، ويحدثه طويلا عن مشاكله الكثيرة

وعن قصة ماتيلدا بصورة خاصة ، ويطلب اليه البقـاء معه ومساعدته فى مواجهة الظروف القاسية . ولـكن رامبو يغتنم أول فرصـة ليتخلص من هـذا الجو « السخيف » فيترك لندن عائدا الى شارلفيل بعد أيام قليـلة ... ويضطـر فيرلين ، أمام الحاح أمه ، الى مغادرة لندن والعودة لتسوية أوضـاعه العائليـة ، فيصل الى بلجيكا فى ٤ نيسان عام ١٨٧٣ . ويستقر



رامبو وفيرلين في شوارع لندن
بريشة : فيلكس ريغامي

فى منزل عمة له تملك قصرا ريفيا فى « جوهانفيل » فى الآردن البلجيكية ، وفى هذا المنزل الفخم ، تهدأ نفس فيرلين بعض الشىء ، ويستغرق فى عزلة حلوة ، بعيدا عن مضايقات ماتيلدا ، وضوضاء باريس ، وجنون رامبو . ويتم مجموعة جديدة من الشعر « مشاهد بلجيكية » :

« ... وشعاع ذهبى يتخضب فى هدوء ،
« على أطراف الاغوار المتواضعة ،
« واشجار صغيرة من دون قمم ،
« يفرد عليها عصفور ضعيف .. »

فصل في الجحيم

« من روح الصحراء الى روح الليل .. ابدا
تستيقظ عيناي المتعبتان على نجمة فضية »
رامبو – فصل في الجحيم

هذا العصفور الضعيف لم يكن غير رامبو ، اذ انه لم يكد يصل الى شارلفيل حتى أصيب بنوبات حادة من الحمى ، وصلت به حد الهذيان ، وشحب وجهه حتى خيل لأمه انه أصبح على حافة القبر ، وهزل جسمه ، وأصبح لا يقوى على المشي الا قليلا ، انها آثار الحشيش والخمر ، والليالى المستهترة فى باريس ولندن ... ولكنه رغم كل شيء كان لايزال يتابع حلمه الذهبى الجميل ، أن يضع قدمه على أرض جديدة من الرؤى والاحلام وانتقلت به امه الى ضاحية « روش » قرب شارلفيل ، حيث كان يعيش أهلها ، وفى منزل ريفى قديم ، بدأ رامبو حياة هادئة معتزلة ، كانت أشبه بدور النقاهة فى شبابه المحموم ، وفى أحضان الريف الذى كان ينعم به فيرلين ، فى نفس الوقت ، وولدت فى رأس الشاعر الصغير الافكار الاولى لكتابه الاخير « فصل فى الجحيم » كان يذهب كل يوم الى آثار الخرائب التى تركها الالمان فى تلك المنطقة فى حرب السبعين .. ويجلس أمام جدار متهدم ، ويسطر فى انفعال وحرارة ، خلاصة تجربته العنيفة فى حياته

القصيرة « فى الماضى اذا كنت أذكر جيدا ، كانت حياتى مأدبة ، كانت تفتح فيها جميع القلوب ، وتسيل جميع الخمور ..

« ذات مساء ، أجلست الجمال على ركبتى ، ووجدته مرا ، ولعنته ..

« قد ربحت ضد العدالة .

« ولذت بالفرار ، أيها السحر ، أيها البؤس ، أيتها الكراهية ، لك وحدك أبحت كنزى .

« توصلت الى ان اجمل كل أمل انسانى ، يتلاشى فى روحى . وعلى كل غبطة ، وثبت وثبة صماء ، وثبة الوحش المفترس لكى أدمر الغبطة .

. . . . .

« لقد ورثت عن اجدادى الفوليين ، العين الزرقاء ، ذات البياض ، والفكر الضيق ، والحماقة فى النضال ووجدت ثيابى وحشية مثل ثيابهم ، ولكننى لم أدهن شعرى .

« منهم ورثت عبادة الشعوذة وحب السحر ، وجميع الرذائل ، الغضب والترف ـ والترف رائع ـ وبصورة خاصة ورثت الكذب والكسل ..

. . . . .

« ولكننى كنت دائما وحيدا بغير عائلة ، وحتى اللغة التى كنت أتكلم بها ، اية لغة كانت ؟ ولم أجد نفسى قط متبعا وصايا المسيح ، ولا نصائح السادة ، ممثلى المسيح .

« من كنت فى القرن الاخير ؟ لا أجد نفسى الا الآن .. كثير من التشرد ، وكثير من الحروب الغامضة ، ان جنس الانحطاط قد غمر كل شىء ، الشعب ـ كما

يقولون – والعقل ، والامة والعلم ...

. . . . .

« الدم الوثنى يعود .

« انتظر الله فى شراهة . اننى من جنس منحط عن كل أبدية .

« ها انا على الشاطىء الصخرى ... كم تتلألأ المدن فى الماء . لقد انتهى نهارى ، وها أنا أغادر أوربا . هواء البحر سوف يلهب رئتى ، والاجواء الضائعة سوف تلوح بشرتى ولسوف أسبح ، أقضم العشب ، أصطاد وادخن بصورة خاصة . أشرب خمورا حادة كمعدن مصهور ، كما كان يفعل هؤلاء الاجداد الاعزاء حول النار

« سوف أعود بأعضاء من حديد ، وبشرة سمراء غامقة ، وعينين ثائرتين ، وسيحكمون على مظهرى ، بأننى من جنس قوى ، سيكون لدى ذهب كثير، سأكون عاطلا عن العمل ، وشرسا . سوف أهتم بالشؤون السياسية ، وانقذ نفسى .

« الآن قد حلت على اللعنة ، بى ذعر من الوطن . افضل من كل شيء أن أستغرق فى رقاد نشوان على رمال الشاطىء ... »

وكان يكتب فى حماسة وبغير انقطاع . وكانت امه تشجعه على الكتابة ، لتبعد عن افكاره شبح الدخان والفرار ، ولكنه ما لبث أن شعر بالضيق من حياته الريفية البليدة ، فكتب رسالة الى ديلاهاى :

« لقد وضعتنى امى فى ثقب حزين . لا أعرف كيف اخرج منه . وسوف اتخلص من ذلك ، اننى افتقد فى اسف حياة شارلفيل ومقهى « الكون » والمكتبة ، ولكنى مع كل هذا اشتغل فى انتظام . اكتب حكايات

صفيرة منشورة عنوانها : كتاب وثني ، أو كتاب زنجي ، انها حماقة وبراءة .. براءة . براءة . براءة ... انني في ضيق لا نهاية له ، ما من كتاب ، ما من حانة ، ما من حادثة في الشارع .. يا للريف الفرنسي ، كم يبعث الرعب .. »

وأضاف : « قريبا سوف أرسل اليك طوابع لتشتري لي فاوست لغوته ، وترسله الى .. »

ولم يجب ديلاهاي على الرسالة في أول الامر ، لأن فيرلين كان قد أرسل اليه هو أيضا رسالة من بلجيكا ، يشكو فيها عزلته ووحشة حياته في روش ، ويطلب اليه التوسط لدى رامبو لكي يوافيه في مكان ما . وكان فيرلين قد كتب رسائل عدة الى رامبو ، يبدى فيها حنينه اليه ، ويتوسل اليه أن يلتقيا في موعد ، ولكن رامبو لم يكن ليجيب ، ان هوس الانتهاء من كتابه « فصل في الجحيم » كان يملأ رأسه ويدفع به الى العمل ليل نهار .

واستطاع ديلاهاى أن يقنع رامبو ، بأن يلتقي الاصدقاء الثلاثة في «بويون» في اللوكسمبورج البلجيكية في ٢٤ أيار ، وكان لقاء مرحا يتبادلون فيه الاقاصيص الضاحكة ، ويمزحون ويتناولون طعام العشاء في الهواء الطلق ، ومن ثم يقومون بنزهة في بساتين المدينة ، يستفرق فيها رامبو وفيرلين في أحاديث ودية ، يستعيدان فيها تلك الطمأنينة الوادعة التي كانت تغمرهما بها ، صداقتهما القديمة . وفي صباح ٢٥ آيار يبحران الى انجلترا ...

بين لندن وبروكسل

« والبؤس كان يبعث فينا الغضب ... »

فيرلين

ويصلان الى لندن بعد يومين ، ويعودان الى حياة التشرد والضوضاء ، ولكن رامبو يشعر بسأم وهم منذ اليوم الاول . لقد انتزعه فيرلين انتزاعا من تلك التجربة الداخلية الثمينة التى كانت تكتب فى غمرتها اعمق صفحات آثاره الادبية . وها هو الآن فى المدينة الجافة من جديد ، تجذبه حياة الاستهتار من كل جانب ويمل من صحبة فيرلين ، الذى كان يذكر ماتيلدا فى كل حين ، ويتحدث عن أحزانه وأخطائه الماضية ، وكان رامبو يضطر تخلصا من هذه الاحاديث التافهة المزعجة ، الى أن يترك فيرلين وحيدا طول النهار ، وفى المساء كان يتنازع معه لأتفه الاسباب . ويروى فيرلين أن رامبو فى ذلك الحين ، كان قد تعرف على امرأة مستهترة من لندن ، كان يقضى معها معظم ساعات النهار ، وكان يجد فى أحضانها ـ كما يقول فيرلين ـ عزاء عن حياته المملة فى لندن ... وتشتد بينهما المنازعات ، لقد كان كل منهما ، فى هذه المشاحنات ، ينحى باللائمة على صديقه ، ويحمله مغبة كل ما أصابه من فشل وغم . فيرلين فقد زوجته ، ورامبو خيبته فى لندن ...

وكانت هذه المنازعات تبلغ أحيانا حد التشاجر العنيف والتضارب . وفى ٣ تموز عام ١٨٧٣ ، عاد فيرلين الى الفندق ، وقد حمل زجاجة خمر وشيئا من السمك ، فرأى رامبو جالسا يدخن فى استغراق ، وكان التعب يبدو على سمات فيرلين ، ولكن رامبو لم يأبه لأى شيء ، بل قابله بجملة فيها سخر وبذاءة ... فما كان من فيرلين الا أن قذف بالسمك فى وجهه ، وهبط السلم فى سرعة ، ومضى جريا فى شوارع لندن ، حتى وصل الى الميناء ، فركب الباخرة الذاهبة الى انفرس ، وكانت ستقلع بعد قليل . وبقى رامبو فى لندن وليس فى جيبه فلس واحد .

وتلقى رامبو منه الرسالة التالية :

« صديقى ...

« لما كنت احبك حبا عميقا لا نهاية له ، اريد أن اخبرك بأننى اذا لم اكن مع زوجتى خلال ثلاثة أيام ، فاننى سوف أطلق النار على نفسى . ثلاثة أيام فى الفندق ومسدس صغير ، انه ثمن غال ... يجب أن تصفح عنى » ..

وعندما كان رامبو يقرأ هذه الرسالة المفاجئة ، كان فيرلين قد وصل الى لييج ، وكتب ثلاث رسائل ، احداهما الى ماتيلدا ، ولكنها لم تفتحها ، والثانية الى أمه يخبرها بأنه عزم على الانتحار اذا لم تعد اليه زوجته ، ويطلب وساطتها ، أما الرسالة الثالثة فقد وجهها الى أم رامبو ، وقد فقدت هذه الرسالة ، ولكن جوابها وصل الى فيرلين فى اليوم التالى :

« أيها السيد ، اننى أجهل سوء تصرفك مع آرثر ، ولكنى تنبأت فى كل حين بأن نهاية علاقتكما لن تكون

حسنة . قد تسألنى لماذا ؟ .. لأن ما لا يسمح به الآباء الصالحون والعارفون ، ويقرونه يجب ألا يكون حسنا للأبناء » .

وتذيل الرسالة بمقال عن نصائح الآباء ، وتطلب الى فيرلين الاقلاع عن فكرة الانتحار ، لأنها هى أيضا كانت شقية « ولكن الله وهبها قلبا قويا ، ومهما تكن خباثة الناس ، فلا تيأس من رحمة الله » ..

وتخفف هذه الرسالة كثيرا من اندفاع فيرلين ، لقد كان بحاجة الى مثل هذه اللهجة الحانية ، وتأتى أمه فورا الى بروكسل ، فترغمه على أن يتخلى عن هذه الافكار الجنونية وعن ماتيلدا المستغرقة فى جفائها وعنادها ...

وفى هذه الاثناء كان رامبو فى غمرة من الجوع والهموم يكتب اليه هذه الرسالة المؤثرة :

« عد الى يا صديقى العزيز ، يا صديقى الوحيد ، عد .. أعاهدك على أن أكون طيبا ..

« تكلم ، أجب على صديقك .. هل وجب علينا الا نعود الى الحياة معا ؟ لا تصغ الا الى ما يمليه عليك قلبك ...

« لك مدى الحياة .. رامبو .. »

وكتب هذه الحاشية :

« اذا لم استطع أن اراك ، سوف أتطوع فى البحرية أو الجيش . أواه عد الى .. اننى أبكيك فى كل هذه الساعات » ..

ولكن هذه الرسالة لم تصل الى فيرلين ، لأن رامبو لم يكن يملك ثمنا لطابع البريد ، فطواها ووضعها فى جيبه ..

وعمد الى بعض الملابس فخرج الى المدينة وباعها . وامن بذلك حياته فى لندن خلال أسبوع كامل . وكتب الى فيرلين الرسالة التالية :

« صديقى العزيز ...

« تناولت رسالتك التى كتبتها من البحر . انك مخطىء هذه المرة ، انك على خطأ كبير .. أولا ، لا شيء جدى فى رسالتك ، زوجتك لن تعود أو قد تعود خلال ثلاثة شهور ، من يدرى ، أما عن انتحارك ، فأنا أعرفك ..

« لن أعود الى منزلنا .. سوف أمضى الى باريس ، وسأحاول أن أسافر مساء الاثنين ، لقد اضطررتنى الى بيع جميع ملابسك ، لم أستطع ان أفعل غير هذا .

« اذا عادت زوجتك حقا ، فلن أزعجك بكتاباتى ، ولن اكتب اليك أبدا ..

« هل تظن ان حياتك ستكون أكثر متعة مع الآخرين ، مما ستكون معى . فكر بهذا الواقع .. لا ، معى وحدى تستطيع أن تكون حرا ، وما دمت قد عاهدتك على أن أكون لطيفا فى المستقبل ، واننى ألوم نفسى على كل ما اقترفت من أخطاء ، واننى أصبحت ذا روح شفافة ، واننى أحبك كل الحب ، وانك اذا لم ترد أن تأتى ، أو أن آتى أنا اليك ، فانك تقترف جريمة ، سوف تندم عليها . فى سنين طوال تفقد فيها كل حريتك ... » الخ ..

وكتب اليه عنوانه حتى ظهر ٨ تموز ..

وفى صبيحة ٨ تموز تلقى رامبو البرقية التالية :

« متطوع أسبانى .. تعال الى فندق ليبج . احمل معك الثياب وما تستطيع من المخطوطات » ..

وتوهم رامبو أن فيرلين قــد أصــبح فى الجيش الاسبانى ، وأنه يدعوه ليودعه ، ولـكن فيرلين كان قد قدم طلبا للتطوع فحسب ، ورفض طلبه بعد ارساله البرقية ، لأنه كان مشبوها . « لعل تحمسه للكومون مصدر هذه الشبهة » ...

ووصل رامبو الى بروكسل . وقبل أن يحيى فيرلين قال له :

ـ اذا كان لديك مشاريع فان لدى مشروعا واحدا : باريس ..

فقال فيرلين :

ـ باريس .. ؟

ـ المدينة الوحيدة التى أستطيع أن اعيش فيها ..

ـ ولندن ؟ ..

ـ الحياة فيها غير ممكنة ..

وصاح فيرلين غاضبا :

ـ ولـكن ماذا تفعل فى باريس ؟ .. هل ينتظرك فيها احد ؟ ..

وعندما حدثه فيرلين بقصة انتحاره انفجر ضاحكا. وانطلق به فيرلين الى فندق كورترى حيث اســتأجر غرفتين ، احداهما لأمه ستيفانى ، والاخرى احتفظ بها له ولصديقه ...

حب وشعر .. ورصاصتان

« .. اواه ، أى قلب ضعيف هو قلبى ... »

فيرلين

ولم يستطع فيرلين الرقاد ، فتناول كمية من « الابسنت » المخدر ، وعند الصباح ، استيقظ فى حالة عصبية هائجة ، وكان يصيح برامبو :

ــ من ينتظرك فى باريس ؟.. هل تعتقد انى خبيث الى هذا الحد ؟

والح على رامبو بالرجوع الى لندن ، ولكن رامبو رفض فى عناد ..

ورغم هذا الجو القلق بينهما ، فقد ذهبا معا الى حانات بروكسل وقضيا طوال النهار وهما يشربان الخمر ، ويدخنان ، ويتبادلان الاحاديث عن السفر ، ولا تكاد تسود بينهما فترة من الصمت ، حتى ينفجرا من جديد فى النزاع حول باريس ولندن ، بشكل صبيانى غريب ، وكان فيرلين فى حالة هياج شاذة ..

« كان يصر كثيرا على أن أبقى الى جانبه ، تارة يبدو عليه اليأس ، واحيانا كان يثور ويعربد . ولم يكن ثمة انسجام فى افكاره . يوم الاربعاء ، شرب أكثر من العادة وثمل ، وفى صباح الخميس خرج منذ الساعة السادسة ولم يعد الا عند الظهر ، وكان فى حالة جديدة من

السكر واخرج من جيبه مسدسا كان قد اشتراه ، وعندما سألته ماذا يريد أن يفعل به ، أجابنى مازحا : انه من أجلك ، من أجلى ، من أجل جميع الناس ... وكان فى نوبة حادة من الانفعال ... »

وكانت ستيفانى المسكينة ترى ابنها فى مثل هذه الحالة ، وتحاول أن تهدىء من نفسه ، ولكن عبثا . واصر رامبو أمام هذا ، على العودة الى باريس ، لقد اصبحت الحياة مع فيرلين غير ممكنة على الاطلاق ..

ـ انك تعلم ، انه لن يحول بينى وبين الدهاب أى شىء ..

فقال فيرلين فى توسل :

ـ اشفق على .. الا تعرف ان ذهابك قاس الى ابعد حد ؟ ..

فقال رامبو فى برود :

ـ وهذه الدمامة ؟ ..

فرشقه فيرلين بنظرة سوداء من الحقد ، وخرج وهو يضرب الباب خلفه ويتوجه رامبو الى ستيفانى ، وكانت معهما فى الغرفة :

ـ انك تحسنين صنعا لو تعطينى اجرة السفر الى باريس ، ان فيرلين قد ذهب ليشرب من جديد ..

فأجابته المرأة :

ـ لا أملك مالا ، لماذا لا تطلب من أمك أن ترسل اليك شيئا ؟ ..

فقال رامبو :

ـ انها تفضل أن ترانى أموت على أن تفعل شيئا من هذا .

وبينما كانت ستيفانى تؤنبه على ذكر امه بمثل هذه

اللهجة ، تسمع خطوات فيرلين على السلم ، ودخل الغرفة ، محمر الوجه ، ثملا حتى الجنون ، وصاح :
ــ ماذا تروى ؟ ..

فاجاب رامبو فى برودته المعهودة :
ــ كنا نتحدث عن باريس .. وقد رفضت امك أن تقرضنى ثمن تذكرة السفر ..

فقال فيرلين :
ــ اننى أمنعها من ذلك ..
ــ لماذا ؟ ..
ــ لكي أمنعك من الذهاب ..
ــ تمنعنى .. ها ، سأذهب دون شىء ، أننى أعرف الطريق ..

ووضع فيرلين يده على المسدس فى جيبه ، فصاحت امه :

ــ بول ، لا تجن ! ..

وهرعت اليه واحاطته بذراعيها ..
فقال فيرلين بلهجة باكية :
ــ لقد يئست يا أمى ..
فى هذه اللحظة تجلى حب فيرلين لهذا الشاعر العنيد، بشكل جنونى ، انه يحبه حتى الموت .. ومجرد تصوره انه سوف يهجره ، كان نوعا من الانهيار والموت له . وكان بين الحين والآخر ينظر الى رامبو فى مزيج من اللهفة والحقد ، وكان رامبو يوجه اليه كلمات قاسية مليئة بالاستخفاف :
ــ انظر الى نفسك ، اى وجه لك ؟ ..
واستطاعت الأم أن تسير به الى غرفتها ، فارتمى على السرير ، وجعل يجهش بالبكاء :

ـ لا أريده أن يذهب ، لا أريده أن يهجرنى .. رباه ماذا أفعل لأضطره الى البقاء معى ...

فصاح به رامبو من الغرفة الثانية :

ـ تعال معى ، القطار يتحرك فى الثامنة ..

ـ حسنا فلنذهب معا ! ..

ـ ان هذا يتيح لك أن ترى زوجتك ! ! !

ولمس فيرلين ازدراء فى لهجة رامبو ، فصاح :

ـ زوجتى ، زوجتى ، ألا تخجل ؟ ..

ونهض متوجها صوب رامبو ، متوعدا ، ولكن امه حالت دون ذلك فتسلل من بين يديها ، وخرج ..

وتوسلت ستيفانى الى رامبو ، أن يبقى يوما أو يومين ، لكى تهدأ نفس فيرلين :

« الا ترى الحالة التى تسببها له فكرة افتراقك منه ؟ .. »

ولكن رامبو قال فى عناد : « لا ! .. »

وعاد فيرلين من جديد ، وقد تجهم وجهه ، وقست سماته ، ودخل الغرفة فى هدوء ، ثم أغلق الباب بالمفتاح ، وارتمى على مقعد قريب من الباب ، وأخرج مسدسه وجعل يحشوه بالرصاص وبدا القلق على وجه رامبو وكان مستندا على الجدار المقابل ، وسأله :

ـ ماذا تريد أن تفعل بهذا المسدس ؟ ..

فوجه المسدس اليه ، وهرعت ستيفانى مذعورة نحو فيرلين ، ولكنه صوب اليها الفدارة مهددا ، فتراجعت ، وصرخ برامبو :

ـ هذه لك ما دمت ستذهب ، وسوف اعلمك كيف ترحل ..

واطلق رصاصتين ، الاولى أصابت رامبو فى ذراعه

اليسرى ، والثانية أصابت الجدار ..

وتملكته نوبة انفعال ويأس ، فهرع الى رامبو باكيا :

ـ اواه يا صفيرى ، لقد جرحتك ، غفرانك يا رامبو لا ، بل خذ هذا المسدس ، اقتلنى ، اقتلنى ...

ولكن رامبو توجه نحو النافذة ، ونظر فى مكان الاصابة ، وكان قد سال خيط من الدم ..

« وقد أبدى فيرلين على الفور أشد انفعالات اليأس ، مما فعله ، وهرع الى الغرفة الثانية التى تشغلها أمه ، وارتمى على السرير ، لقد كان كالمجنون .. لقد وضع المسدس فى يدى ، وطلب الى أن أطلق عليه الرصاص ، لقد كان تصرفه هذا تعبيرا عن أسف عميق على ما حدث .. »

وكان فيرلين يصرخ خلال ذلك :

ـ اسرعى الى الطبيب .. استدعى لنا طبيبا بسرعة ، أماه هيا ، انزلى ، هيا اركضى ، اسرعى ، اسرعى ، اواه ، هذا غير ممكن ، لست أنا ...

فأجاب رامبو فى هدوء :

ـ لنذهب الى المستشفى ، ولا تصرخ بعد الآن ، انها حماقة ، انك لا تحسن اطلاق النار ..

« وفى الساعة الخامسة ذهب بى فيرلين وأمه الى المستشفى لتضميد الجرح ، وعندما عدنا الى الفندق ، عرضا على أن أبقى معهما ليعتنيا بى ، أو أن نعود الى المستشفى حتى أشفى ، ولكن الجرح كان بسيطا ، وأبديت رغبتى أن أعود الى فرنسا ، الى شارلفيل قرب أمى . وهذه الفكرة ، بعثت اليأس من جديد فى نفس فيرلين ، ووافقت ستيفانى ووضعت فى يدى عشرين



رامبو جريح برصاصة فيرلين

« عن صورة فوتوغرافية »

فرنكا اجرة السفر ، وخرجا معى ليصـــطحبانى الى المحطة » ..

ومن حسن الحظ ، انه لم يكن يبدو عليهم اى مظهر يلفت النظر . لقد سمع نزلاء الفندق طلقات النـــار ، ولـكن اســتبعدوا أن تكون ثمة جريمة بين صـديقين متلازمين . ربما أطلق الرصاص خطأ . ولكن فيرلين كان يوشك أن يفضح كل شيء ..

كان يســير فى اضطراب وخوف ، وكان ينظر الى رامبو فى توسل ويأس . أحقـــا يريد رامبو أن يتخلى عنه ؟ .. وما قيمة وجوده بعد ذلك ؟ .. لقد فعل كل شيء ، وتخلى عن كل شيء ، من أجل رامبو ، من أجل هذا الفنان الذى بذل حياته وأمدها بدم جديد حار ، وعلمه الشعر الحق . وهنا الينبوع يوشك أن ينضب الآن ، أن يتوارى عنه الى الابد . وهذه اللهفة الطاغية الى أن يرى رامبو ابدا ، ويتحدث اليه ، وماذا يفعل بها ؟ .. ومد يده من جـــديد الى جيبه ، وتلمـــس الفدارة . اذا كان الهجران امرا لابد منه ، فليكن أبديا. ان فيرلين لا يستطيع أن يتصور رامبو فى مكان ما على الارض ، دون أن يكون هو معه . وكانوا قد وصـلوا الى ساحة قريبة من المحطة ..

« عندما وصـــلنا الى ســـاحة « روب » ، سبقنا بخطوات ثم عكف راجعا صوبى ، ويده على الفدارة فى جيبه ، كان يبدو عليه انه يريد أن يخيفنى ، وانه يريد اطلاق النار من جـــديد ، فرجعت القهقرى ، ولذت بالفرار ... »

وصاح فيرلين وهو يهم باللحاق برامبو :

ــ لا ، لا تهرب ! ..

وحاول الجرى وراءه ، ولـكنه لم يستطع ، ورأى رامبو أثناء جريه أحد رجال الامن فى المدينة ، فالتجأ اليه ، وقال له وهو يشير الى فيرلين :

ـ هذا الرجل يريد أن يقتلنى ، انه يملك غدارة ، حذار منه ..

واعتقل فيرلين ، واضـطر رامبو للبقـاء من أجل الاستجواب ، وقضى فيرلين يومى ١٠ و ١١ من تموز فى مركزالشرطة مع أحد السكارى، ومنه نقل الى السجن، وكان رامبو قد دخل المستشفى .

وهكذا كانت نهاية هذه الصداقة العجيبة . ويا لها من قصة ساخرة ، ان رامبو الثائر الاول على العدالة والقانون ، رامبو الذى يتهم الانسانية بالحقارة والجبن أمام خفقة الشعر فى صدره ، يسلّم صـديقه الشاعر الذى احبه واخلص له الى عدالة الانسانية ! ..

ومضت عشرة أيام ، كانت كافيـة لأن تملأ فيهـا قضية رامبو ـ فيرلين ، اوساط فرنسا وانجلترا . وتعرض الشاعران لأقصى محنة فى حياتهما ، لم يقابلاها بغير الندم والالم . وأعيدت قصة « العلاقة الآثمة » بين الشاعرين ولـكن المحكمة لم تثبت شيئا من هذا :

ـ من أين كنتما تعيشان فى لندن ؟

ـ من الدراهم التى كانت ترسـلها أم فيرلين الى ابنها ، كما كنا تكسب بعض المال من الدروس الفرنسية التى كنا نعطيها معا ، وكنا نتقاضى منها اجرا لا بأس به ...

ـ هل تعرف أسباب القطيعة بين فيرلين وزوجته ؟

ـ فيرلين ، لم يكن يريد أن تستمر زوجتـه على السكن فى منزل أبيها ؟

ـ الم تذكر هى سببا لذلك ، صـــداقتك الصميمة مع فيرلين ..

ـ نعم لقد اتهمتنا حتى بوجود علاقات غير اخلاقيـة بيننا . ولــكنني لم اكلف نفسي عناء تكذيب شــائعات كهذه ..

ولــكن كثيرا من اشعار فيرلين ادانت الشاعرين معا ، وقد تلى بعضها فى المحكمة ، واستمرت المحاكمة حتى الثامن من شهر آب . وكان رامبو قد تخلى عن كل حق له فى الدعوى على المتهم ، ولــكن المحكمة ، اصـدرت حكمها بالسجن سنتين ، بتهمة اطلاق النــار ، وجرح بليغ ..

واقتيـــد فيرلين الى سجن موق . وكان رامبو فى طريقه الى شارلفيل .. وملء نفســـه حنين ورحمة لصديقه الذى ما يزال يذكر قوله فى احدى قصائده :

« أيها العاشقان ، اللذان اصبحا صديقين ..

« لم يكن بينكما مواثيق ولكنكما كنتما ابدا وفيين »

انطفاء على أبواب المستحيل

«.. لا اناشيد بعد اليوم ..»

رامبو ـ فصل فى الجحيم

فى العشرين من تموز وصل رامبو الى شارلفيل ، ولكنه لم يجد أحدا فى المنزل . وعلم ان أسرته كانت ما تزال فى « روش » ... فذهب الى المحطة فور وصوله وهبط فى مكان قريب من « روش » ، وسار الى هذه القرية على الاقدام .. يقول كاريه :

« رأيته يسير بخطى واسعة فى طريق كثير الغبار ، يده الجريحة مشدودة الى عنقه برباط أبيض ، وكانت الشمس حادة ، والوقت ظهيرة ، وحوله كانت تمتد حقول فضية من الشوفان .. »

وعندما وصل الى المنزل ، كان الجميع ينتظرونه أمام الباب ، وعانقوه ، واحدا واحدا ، ولكنه لم يستطع ان يمد يديه اليهم . بل ارتمى على مقعد فى المطبخ . واستغرق فى البكاء والانتحاب وهو يردد : « فيرلين ، فيرلين » ..

وسادت فترة من الصمت ، نهض خلالها رامبو ، وجلس أمام المائدة ، وقالت له أمه :

ـ ومخطوطاتك ، هل أعيدت اليك ؟

ـ لا ، لقد ضاعت .. ولا يهمنى هذا ، لا أريد

أن أراها ثانية ..

ثم استغرق فى صمت عميق ..

وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ، حمل رامبو أوراقه ، وصعد الى غرفة صغيرة فى المنزل ، وأغلق الباب جيدا ، وجلس يتم كتابه « فصل فى الجحيم » . لم يكن يرى انسانا . وكان يكتب فى انفعال وحماسة عجيبين . وبين حين وآخر ، كانت أمه تصعد الى منتصف السلم ، فتسمع صوته ، وهو ينتحب ، أو يخاطب أشباحا ، أو يصرخ ، أو يقرأ صفحات من كتابه الغامض .. وكان يزجر كل من يحاول الاقتراب منه ، لقد كان يصفى الحساب مع نفسه ـ اذا صح التعبير ـ ها قد مضى عامان على يقظته الروحية ، وشعوره برسالته فى الشعر ، فهل حقق شيئا طوال هذين العامين ؟ لقد أراد أن يكون بصيرا .. أن يضع يده على المجهول ، أن يعيش كالمطلق بكل ما فى حواسه من ارهاف ، فهل قدر له ذلك ؟ وقد ذهب الى باريس للتبشير برسالته ، وعرف جميع صور الحياة . من تأمل الاشجار البرىء ، الى الضياع فى دخان الحشيش فماذا جنى ؟ لا شىء ، الا رصاصتين ، وفقدان صديق يحبه ، ونقمة مشيخة من الراى العام ! ان شيطانا هو الذى كان يوجه خطاه ، شيطانا لايرحم ، قال له ذات يوم : لكى تكون مبصرا ، يجب أن تكره الله ، يجب أن تفسد حواسك بالاستهتار ، وأن تتمرد على كل شىء .. وقد كان شيطانا خادعا . ان فى الانسان جانبا آخر ، غير الثورة والحقد . هناك الروح الساذجة البسيطة التى ما تزال تؤمن بالمسيح ، وتعرف الحب والرحمة ، وتبارك الحياة ...

وبين رامبو الشيطان ، ورامبو الملاك ، كانت معركة رهيبة فى هذه الغرفة الصغيرة من المنزل الريفي ، كانت صفحات « فصل فى الجحيم » ثمرة لها . منذ شهور كان الشيطان يسطر هـذه الصفحات ، مليئة بالجوع والمرارة واللعنة ، ولكن ملاكا رحيمـا الآن ، يكتب بأنامله الناعمة :

« البيض يبحرون ، المدفع يطلق ، يجب أن نخضع للتعميد ، نرتدى ثيابا ، ونشتغل ..

« لقد هبطت النعمة على قلبى ، ولم أكن أتوقعهـا ..

« لم أصنع الشر قط ، والايام سوف تكون خفيفة الوطأة على ، وسـيتوارى عنى كل ندم . لن أعرف اضطراب النفس التى تكاد أن تفنى فى فعـل الشر »

« لاريب أن الشر حماقة ، والرذيلة حمقاء ، يجب أن نقذف بالفساد بعيداً ، ولـكن الساعة لن تتوصـل الى أن تعلن بدقاتها ساعة الألم المحض ..

« هل يتاح لى أن أنشأ كالطفـل ، لـكى ألهو فى الفردوس ، متناسيا جميع الآلام ؟ ! ..

« بسرعة ! ثمة حيـاة أخرى ، ان الرقاد فى الثراء أمر مستحيل ، لقد كان الثراء للعامة فى كل حين . أن الحب الالهى وحده ، يمس مفاتيح العلم . وأرى أن الطبيعة ليست الا مشهدا للطيبـة . وداعا أيتهـا الاشباح ، وداعا أيتها المثل ، وأيها الضلال ...

« ان غناء الملائكة الحكيم ، يرتفع من سفينة الانقاذ ، انه الحب الالهى . صورتان للحب . أستطيع أن أموت من الحب الارضى ، أموت من التضحية . وأنتم تختاروننى بين المتقذين من الغرق ، والذين يبقون أليسوا أصدقائى؟

« أنقذوهم ...

« لقد ولدت الحكمة فى نفسى .. العالم طيب . سوف أبارك الحياة . سوف أحب أخوتى . لم يعد ذلك أملا من عهد الطفولة ، ولا أملا فى الخلاص من الشيخوخة والموت ان الله يهبنى القوة . فالحمد لله ... »

ولكن دماء رامبو ما تلبث أن تهدر بالمنصر الرجيم فيختم هذا الفصل الهادىء من جحيمه ، بهذا الهذيان الطارىء :

« أواه ! رئتاى تلتهبان . والزمن يزمجر ! الليل يجرى فى عينى ، أمام هذه الشمس ! فى قلبى ، فى كل جوارحى ...

« اين نمضى ؟ الى المعركة ؟ اننى ضعيف ، الآخرون يتقدمون . المعدات . الاسلحة . الزمن ! ..

« النار . اطلقوا على النار . هناك حيثما اكون ! ايها الجبناء . اننى اقتل نفسى ! اننى ارتمى تحت حوافر الجياد ..

« أواه ! »

ولكن نفس رامبو تبدو فى « فصل الجحيم » وكانها قد أدينت الى الابد . ان الغلبة أبدا للشر عنده . قد يكون سبب ذلك ، هذا العنف الجامح الذى تتصف به نفسه الخارقة . أما الجسد أو الروح ، اما الطهارة المسيحية الصافية ، أو الدنس الذى لا يغسل . يقول جاك ريفيير فى كتابه « رامبو ، أبو الوجودية » :

« كان رامبو يريد أن يتحرر من العالم . من جسده من كل شىء ليصبح صوتا للروح . وكانت حياته نضالا بين الجسد والصوفية . لقد كان يريد ان يكتشف فى المناطق العميقة للروح كل ما هو خارق فوق الطاقة »

ولعل هذا ما جعل حياته ازدواجا فى الشخصية .

وجعل نفسه ، كما يقول ريفيير ، تتجه نحو نهاية العالم وما دام الانسان ملكا لرعشات حواسه ، فلا قيمة لوجوده ولا رسالة له . العدم هو كل شيء بالنسبة اليه . لقد قضي عليه بالشقاء الى الابد .

لقد كانت ثورة رامبو على الوجود .. لأنه الجحيم الذى لا مفر منه ..

« لقد نهلت جرعة فظيعة من السم . أحشائى تلتهب انني اموت من الظمأ . انني أختنق ولا استطيع الصراخ انه الجحيم ، العذاب الابدى . انظروا كيف ترتفع النار انني أحترق . اليك عنى أيها الشيطان ! ..

« ولكن ما زالت هذه هى الحياة ! اذا كانت الادانة ابدية فانا اؤمن بوجود الجحيم ، لذلك فانا فى الجحيم انني عبد تعميدى ، لقد صنعتم شقائى بتعميدكم يا أهلى ، وشفاءكم أيضا ، يا لى من برىء مسكين ! ان الجحيم لا يستطيع أن يلحق بالوثنية ..

« رحمساك يا الهى . انني خائف ، انني ظامىء ، شديد الاوار » ..

« انه شعور جديد بلهفته الى المجهول . الى أن يغمس يديه فى أغوار الحياة ، وأن يصل الى ما لاسبيل للوصول اليه . ان يعبر عن المستحيل » ..

« أريد أن أحسر النقاب عن جميع الاسرار . أسرار الدين ، وأسرار الطبيعة ، الموت والولادة ، الماضى والمستقبل ، أسرار الكون والعدم ..

« أصغوا الى !

« أن فى جميع المواهب » ..

ويقول فى نهاية فصل المستحيل :

« يا للصفاء ، يا للصفاء .. »

« انهــا لحظــة من اليقظـــة ، تلك التى أعطتنى رؤيا الصفاء ، بالروح نصل الى الله » ..

ولـكن هذا الوصول لم يكن بالامر السهل على رامبو انه ما يزال يؤمن بالحاسة التى أعطته الشعر والغبطة ذات يوم . التى سددت خطواته القلقة المجنونة ، فى طريق اللانهاية ، فى طريق الاله الحقيقى الذى يملك دفء الحياة ، ورسوخ الارض . ذلك الاله الذى سماه فى قصائده الاولى : أفروديت . والذى هو الاله الحى للانسان العادى الذى يعيش فى صخب الحياة وضوضائها فهل يتخلى عن الحاسة ؟ هل ينطلق وحيدا بيقظة الروح فى نفسه ؟ لا .. ان رامبو فى نشدانه المطلق عن طريق الحاسة ، قد وضع يده على أزمة العصر الحديث ، كما يقول جورج ديهامل . العصر الذى يريد تهـذيب الغريزة والحاسة ، والخلاص بهما الى صفاء الروح ، الى النور ... وهى قصة الجماهير التى لا سبيل الى خلاصها الا عن طريق الحاسة . بدين جديد هو التحرر من الاوهام .

« متى نمضى الى وراء الرمـــال والجبال . نحيى ولادة العمل الجديد ، والحكمة الجديدة . وفرار الطغاة والشياطين . ونهاية التعلق بالاوهام . متى نمضى لنعبد الاوائل .. انه عيد ميلاد على الارض ..

« انشـــودة السموات . انطلاق الشـــعوب . أيها العبيد . لنكف عن لعن الحياة » ...

يقول كارى : « ان رامبـــو لم يكن يريد ان يســير بتجربته وحيدا . لقد كان يريد الخلاص لجميع البشر ولا سيما لجماهير الشعب الفقيرة المهملة » ..

وفى أواخر شهر آب عام ١٨٧٣ انتهى رامبو من كتابة

الفصل الاخير من كتابه الاخير بعنوان « وداع » :

« ها هو الخريف ! لمــاذا نأســف على الشمس الابدية . اذا كنا ملزمين باكتشاف الاشراق الالهى بعيدا عن الناس الذين يموتون مع الفصول ..

« الخريف . ان شراعنا المرتفع فى الضباب الساكن يتوجه الى شاطىء الشقاء . نحو المدينة الضخمة ذات السماء الملطخة بالوحل والنار . أواه ! الاسمال البالية الخبز المبتل بماء المطر . النشــوة . وآلاف قصص الحب التى شدتنى الى صليبها . فلن ينتهى اذن هــذا أبدا ..

« وانا ارفض الشتاء لأنه فصل الراحة ..

« أحيانا أرى فى السماء شطئانا لا نهاية لها . حافلة بأمم فرحة من الشعوب البيضاء . وثم مركب ذهبى كبير فوق رأسى يحــرك أعلامه العــديدة الالوان تحت نسيم الصباح ، لقد خلقت جميع الاعيــاد ، جميع الانتصارات ، جميع المآسى . وحاولت أن أبتــكر أزهارا جــديدة . وجديدا من اللغات ونجوما جديدة وأجسادا جديدة . واعتقدت ان فى يدى قدرة فوق طاقة البشر . والآن على أن أدفن خيالى وذكرياتى . مجد حلم جميــــل ، حلم به فنان قاص يتوارى الآن .

« وأنا ، انا الذى توهمت نفسى ساحرا أو ملاكا ، أعود الى الارض ناضبا من كل أخلاق . وليس لى الا واجب البحث وامتــلاك الحقيقة القاســية !.. يا لى من فردى !

« أمخدوع انا ؟ هل الرحمــة من أجلى شــقيقة الموت . أخيرا ســـاطلب الغفران لأننى غذيت نفسى بالاكاذيب ...

« ولـكن ما من يد صديقة تمتد لى ، ومن أين اطلب النجدة ؟

« ان اقل ما فى السـاعة الجديدة ، أنها شـديدة القساوة ..

« لانني أستطيع أن أقول انني امتلـكت الظفر . ان صرير الاسنان وصفير النار والزفرات الملعونة ، تتغير وتتمدل . وجميع الذكريات الوهميـة تمحى ... ان تنهداتى الاخيرة تزول ، وللشحاذين الحسد . للصوص لاصدقاء الموت ، للرجعيين من كل نوع ، لى الموت اذا كنت انتقم ...

« يجب ان اكون معاصرا بصورة مطلقة ..

« لا أناشيـد بعـد الان ، لنرسـخ الخطـوة التى خطوناها ، يا لليل القاسى ! ان الدم الذى يجف ، يبعث دخانه على وجهى ، لا شيء ورائى الا هـذه الشجيرات المخيفة ! ان معركة الروح لأشد عنفا من معارك الناس ، ولـكن رؤيا العدالة هى مسرة لله وحده ..

« مع هـذا ، فقد كان ذلك أمس ... انها الامسية فلنلتق اثر كل قسوة وكل حنان حقيقى ، وعند الفجر ، وقد تذرعت بصبر حار ، سوف ندخل المدن الرائعة..

« ماذا كنت أقول عن اليد الصديقة ! انها لسانحة حسنة هى انني استطيع أن أضحك من قصص حبى القديمة الزائفة ، وان أصفع بالعـار تلك الازدواجات الـكاذبة من العشاق . لقد رأيت جحيم النساء هناك ، وسيكون من الحق لى أن أمتلك الحقيقة فى روح واحدة وجسد واحد » ..

وكانت هـذه آخر كلمة كتبها رامبو . فوضع القلم جانبا وهبط من برجه الصغير ، وهو صـامت صمت

القبور . وقدم صفحات « فصل في الجحيم » الى أمه ، فقرأتها ولكنها لم تفهم منها شيئا سوى ان رامبو لن يعود الى حياته السابقة ... ولكن أخته ايزابل ، دهشت لهذا الادب القوى ، وطلبت من رامبو شرح بعض فقراته ، فاكتفى بأن قال لها هذه الجملة الغامضة :

ـ أردت ان أقول ما قلته ..

واستأذن امه ان يذهب الى باريس لطبع الكتاب ، فحققت له رغبته ، وذهب رامبو الى باريس ، ثم الى بروكسل . وانتهى من طبع كتابه « فصل فى الجحيم » فى تشرين الاول . وتناول أول نسخة من المطبعة . فارسلها الى فيرلين ...

ولم يتح الانتشار لهذا الكتاب ، ولزمت الاوساط الادبية تجاهه الصمت المطلق وبقيت معظم نسخه مكومة فى زاوية من المطبعة ، أو فى ركن من منزل رامبو. ولكن رامبو لم يثر ولم يغضب . لقد كانت هذه الصفحات له وحده ، ولم يكن هو الذى يكتبها ، بل كانت تملى عليه .. ان شيئا غير الادب كان يناديه ، وما زال يلح بالنداء .. انه الاشراق الالهى الذى يفتح له ذراعيه فى كل مكان .. فلينطلق اليه ، فالكلام لم يعد مجديا ، والشعر عجز ، والكلمات لا تجدى نفعا ...

وتفجرت فى أعماق نفسه عقيدة جديدة .. ان التجربة ، الحياة ، المعاناة هى سبيلنا الوحيد ، لأن نحيى المستحيل وازدحمت فى صدره صورة الشوارع الصاخبة ، والمرافىء العديدة النائية ، وانفاس المدن الكبيرة ، وازقة الاحياء الشاحبة فى جميع أنحاء العالم ...

هناك يفمغم المستحيل . فليتنسم عبيره المرتعش .

وليهجر الى الابد سخافة القول والغناء ...

هكذا يحطم رامبو بيده ريشته العبقرية التى فتحت صفحة جديدة من الادب فى عصرنا الحديث . وتنطفىء هذه الشعلة المتأججة فى العنفوان ، يموت الى الابد رامبو الشاعر العظيم فى الثامنة عشرة من عمره لكى يبدأ رامبو المغامر حياة جديدة منطلقا فى اثر المجهول ...

رامبو المغامر

ان اللعنة التي حلت بك : ان لا تتعب أبدا
تتبع خطاك في العالم ، حيث تجذبك اليها الآفاق

فيرلين ..

١ - في إثر المجهول

عندما نكون أقوياء فمن يتراجع ؟
رامبو ـ الاشراقات

فى شوارع أوروبا البالية

« .. وانت تعلمين هذا المرض المحموم
الذى يتملكنا فى تعاستنا الباردة ، هذا
الحنين الى ان نعرف بلادا مجهولة .. »

بودلير

فى نهاية خريف عام ١٨٧٣ ، كان على رصيف شارع مزدحم ، قرب الاوديون فى باريس شاب طويل ، احمر الوجه ، تنم عيناه الزرقاوان عن نفس متيقظة ، وكان يرتدى ثيابا نظيفة ، على جانب من الاناقة . كان يبدو عليه انه قد سار طويلا فى شوارع المدينة ، لقد كان يتوجه الى مقهى « تابورى » الذى اعتاد أن يجلس فيه وعندما دخل المقهى ، تطلع اليه معظم الرواد فى استغراب وفضول ، وتعالت همسات ووشوشات حوله ، تردد فيها اسم فيرلين ، وبروكسل . وتهالك الفتى أمام طاولة منزوية ، ووضع رأسه بين يديه ، واستغرق فى صمت عميق ، وفجأة نهض شاب أسمر تبدو عليه ملامح عربية ، وتوجه الى القادم الجديد ، ومد يده اليه قائلا :

ـ انت رامبو ؟

فأجابه صوت مطمئن :

ـ أجل ... انا هو !

فقال الشاب الاسمر :

ـ انني أعرفك .. لقد قرأت اشعارك الرائعة ، هل



رامبو الرحالة
بريشة ايزابيل رامبو

تسمح بأن نتحدث قليلا ؟ ..

فأشار رامبو اليه بيده ، داعيا اياه للجلوس . وجلس وعرفه بنفسه : جيرمان نوفو .. »

وكان جيرمان نوفو هذا ، شاعرا فى الحادية والعشرين من عمره .. من ذلك الجيل الثائر ، الذى يحب المغامرة ، والذى وجد في قصة رامبو وعبقريته ، ما يروى خياله الطموح

وكان من الطبيعى أن يتحدث عن الشعر ، ولكنه منذ أن ذكر اسم « الشعر » مرت على ملامح رامبو ، موجة من المرارة والحزن العميق ، وقال له :

ـ دعنا من هذا ... لنتحدث عن الاسفار ، مارأيك فى السفر الى انجلترا ؟

فقال جيرمان :

ـ السفر ... يا لها من فكرة جميلة ؟ متى تسافر ؟

ـ غدا ...

ـ وانا أيضا ...

ـ فليكن ، ولكن ذلك سيكون صعبا علينا ، اذ سيتحتم علينا أن نشتغل لنعيش ...

ـ ماذا يهمنا ؟ نستطيع أن نشتغل ...

وأنشأت فكرة السفر صداقة متينة بين شاعرين : الاول أعطى كل ما عنده ، وخمد وهو لايزال فى التاسعة عشرة من عمره ، والآخر ما يزال على عتبة الوحى ...

وبعد أيام أبحرا الى لندن ، واشتغلا فى بادىء الامر فى مصنع للعلب ، ثم تركاه ليعطيا دروسا خاصة فى اللغة الفرنسية ... وكان رامبو قد وضع خطة تمهد له السبل لتحقيق مشروعه الضخم فى ارتياد العالم هو أن يتقن الانجليزية ، لأنه لا غنى عنها لكل مسافر ، وأن يتعلم الالمانية فيما بعد لأنها ضرورية للتنقل فى أوربا ...

وها هو يبدأ تنفيذ خطته ولقى فى صحبة جيرمان نوفو ، هدوءا واطمئنانا ... كانا يعملان طول النهار وفى الليل يسهران فى حانة متواضعة ، يتحـــدثان فيها عن الادب قليلا وعن أشغالهما فى معظم الاحيان ...

ومضى ما يقرب من العام ، ورامبو على هـذا النحو من الحياة الهادئة وكان قد أتقن اللغـــة الانجليزية ، واصبح يتكلم بها فى طلاقة .. وفى احـــد الايام فاجأ صديقه برغبته فى السفر الى ألمانيا .. وودعه وســـافر توا الى مدينة « شتوتفارت » ليتعلم اللغة الالمانية .. وتعرف فى هذه المدينة على طبيب اسمه فاغنز ، اخذ يتلقى عنه دروسا فى اللغة الجديدة ، وكان يعيش من تدريس الفرنسية هو ايضا ، كما ان امه كانت ترســـل له بعض المال ...

وفى هذه الاثناء لم يكن على اتصال بأحد من أصدقائه القدامى ، سوى ارنست ديلاهاى الذى كان يراسله بين الحين والآخر ، والذى فاجاه فى أوائل عام ١٨٧٥ ، برسالة يخبره فيها بأن فيرلين يسأل عنه ، ويريد أن يعرف عنوانه ... فهل يخبره ؟

كان فيرلين قـــد خرج من السجن محطما ، معذب النفس ، بديوانه الجديد « حكمة » وكله ابتهـــالات وندم ، وعودة باكيـــة الى المسيحية تكاد تكون نوعا من التصوف ..

« ولـكن الحب القاهر يعطى لـكل مخلوق ..

« معنى آلامه التى تسير بخطاه الى الندم ..

« فى طريق هادئة رفيعة ولـكنها وطيدة ... »

ورفض رامبو رجاء صديقه ، ما شأنه بفيرلين ؟ انه لم يعد يهتم بالشعر ولا بالشعراء . ان فيرلين «الاحمق»

قد أصبح ذكرى ميتة فى حياته الجديدة ، ولكن ديلاهاى الح ، أمام الحاح فيرلين .. فذيل رامبو رسالته بالجملة التالية : « سيان لدى ، اذا أردت أعط عنوانى الى لويولا ، وقد أصبح ينادى فيرلين بهذا الاسم » ..

وبعد ثلاثة أيام كان فيرلين فى « شتوتفارت » . وكان اللقاء واجما الى أبعد حد ، ومنذ الساعات الاولى بدأ النزاع من جديد بين الصديقين القديمين ، وكان يدور حول الله والمسيحية . ذلك ان فيرلين المؤمن ، اصبح ينظر الى رامبو نظرة الى صبى ضال ، يجب هدايته . وسخر رامبو منه ، ومن تدينه وجدف على المسيح أمامه .. ويروى ديلاهاى انهما ذات مساء كانا يقومان بنزهة فى ضوء القمر على ضفاف نهر النيكر فجرهما الحديث كالعادة الى النزاع فالتشاجر ، وكانت بينهما معركة استطاع فيها رامبو أن يطرح صديقه على الارض ويدميه . ويروى ان فيرلين قد فقد الوعى ، فبقى مغشيا عليه حتى الصباح ، اذ حمله أحد الفلاحين الى كوخه ، وبعد ذلك بيومين غادر فيرلين « شتوتفارت » والألم يحز فى نفسه ، ولم يقدر له بعد ذلك أن يرى رامبو ، ولكن بقى يتذكره طوال حياته ، ويشير اليه فى بعض أشعاره :

« يا اله المتواضعين ، أنقذ هذا الصبى الجموح ! »

وبقى رامبو فى « شتوتفارت » اربعة شهور ، استأنف بعدها تنقلاته . فقضى عاما كاملا فى مدن المانيا وقراها أتقن خلالها لغة البلاد ، واستطاع أن يجمع بعض المال من اشتغاله بالتعليم . وفى ذات صباح ، باع كل ماكان لديه من حاجيات وباع حتى حقيبة السفر .. وانطلق فى أسفاره سيرا على الاقدام ..

إلى الشرق

« ارسلت الى الشيطان اكاليل الشهداء
وانوار الفنون وكبرياء المبدعين.. وتوجهت
الى ينبـــوع الحـــكمة الابدية ... »

رامبو ـ فصل فى الجحيم

وتوجه رامبو صوب الجنـوب فى هـــذه المرة ، فمـر بنورمبرج ثم عبر سويسرا دون أن يتوقف ، ووضع قدميه فى أرض ايطاليا .. ودخل الى ايطاليا من واد عميق جميل يحف ببحيرة لومبارديا ، ومن ثم استمر فى طريقــه حتى وصـــل الى ميلانو .. وكان الجوع والتعب قد اورثاه الهزال والاعياء . فارتمى أمام منزل فى أحـد شوارع هذه المدينة .. ولم يعرف أحد ما حدث له بعد ذلك ولـكن « باترن بيرشون » يروى ان ايطاليـة حسناء حنت عليه واحبته وقضى فى منزلها شـــهرا . كما ان فيرلين فى كتابه عن « الشعراء الملعونين » يروى أن هذه الحسناء ليست سوى شـــابة أرملة ، اغواها رامبـــو فاستضافته فى منزلها . ولكن ديلاهاى يعتقد أنها امرأة من أثرياء ميلانو أشفقت على رامبو واعتبرته ابنا لها وأن رامبو بقى يذكر حنانها مدة طويلة وانه أرسل اليها فيما بعد نسخة من كتابه « فصل فى الجحيم » ...

وعلى كل فان رامبـــو لم يترك ميـلانو الا فى نهاية صيف عام ١٨٧٥ ، اذ ترك المنزل فى أحد الايام ومضى يبحث عن صديق له وعده بأن يجد له عملا فى أحـد

معامل الصابون . ولكنه لم يجده فخرج من المدينة وسار فى طريقه الى « برينديسى » وكان الجو قائظا فأصيب بضربة شمس فى الطريق ولم يستطع السير ، فأخذ الى دار القنصل الفرنسى فى ليفورن ، وأرسله القنصل الى مرسيليا حيث قضى فى احدى مستشفياتها فترة خرج بعدها سليما . وبقى حتى الخريف فى هذه المدينة يشتغل فى مينائها بمساعدة تجار الشحن ، وبالعمل مع البحارة الى أن التقى برجل من اسبانيا أغراه بان يدخل الجيش الاسبانى . ولكن الامر انتهى به الى العودة الى شارلفيل ...

فى هذه الاثناء وصلت اليه بطاقة من فيرلين فلم يجب عليها .. بل كتب الى ديلاهاى رسالة يتحدث فيها عن سخافات صديقه الشاعر القديم . ولاسيما فى قصائده الدينية التى أسماها « حكمة » وكان فيرلين قد أصبح معلما فى احدى مدارس انجلترا وانهى مجموعته الشعرية الجديدة هذه ، وأرسل الى رامبو رسالة يدعوه فيها الى الايمان بالمسيحية .. « ماذا تقول أيها المتجول فى البلاد والمحطات ؟ الم تسأم ؟ اما انا فلن اتغير .. متدين ورع ، لأن هذا هو الشىء الوحيد الذى يضم كل حصافة وصلاح وما عدا ذلك فهو الخداع والخبث والحماقة . ان الكنيسة قد صنعت المدنية الحديثة والعلم والآداب . لقد صنعت فرنسا والناس . لقد خلقتهم جميعا ... »

« وكم يحزننى أن أراك فى هذه الطرق الحمقاء ، أنت الذكى الناضج .. »

وهز رامبو كتفيه ساخرا « ان فيرلين الاحمق

يهدى » واستيقظت فى نفس رامبو رؤى قديمة سجلتها يده ذات يوم ، رؤى لا تعرف الاستقرار الا فى المرافىء والمحطات ريثما تستمر فى انطلاقها ‥ وتنهد من الاعماق، وغمغم : الشرق ‥ !

ولم تجد هذه الروح الشرود جوابا على فيرلين التائب اجمل من عزم جديد على ارتياد مجاهل المشرق ...

« حيث تتفتح أزهار الحلم ، مغمغمة ضاحكة وتشرق . والعذراء ذات الشـــفتين البرتقاليتين تجلس عارية فى بحر من نور الشمس الراعش وفى البعيد أقواس قزح وخضم لا نهائى ... »

في غابات جاوه

« .. على البحر الذى احببته ، لانه يغسل جراحى ، ارتفع امامى صليب العزاء . . »

رامبو ـ فصل فى الجحيم

روت ايزابيل رامبو أن أخاها سافر عام ١٨٧٦ الى انفرس للقاء صديق له تعرف به فى لندن ، وحدثه طويلا عن شؤون السفر الى الشرق الاقصى .. ولقى هذا الصديق فى انفرس ، وكان قد عاد حديثا من جاوه ، ووسطه رامبو لدى السلطات الهولندية ، فقبلته متطوعا فى أسطولها . وفى أوائل الشتاء ، أبحر رامبو مع الاسطول الى جاوه .. المركب النشوان يحقق حلمه فى ارتياد المحيطات ..

وانقطعت اخبار رامبو حقبة من الزمن . وما من أحد عرف أين قضى هذا الرحالة الشهور الطوال التى استغرقتها رحلته . ولكن بعض البحارة ، زعموا ان رامبو هجر الباخرة منذ وصولها الى جاوه ، وفر من الجيش الهولندى بعد ذلك ، وضاع فى غابات جاوه المتوحشة ، ومناطقها المجهولة ...

والحقيقة أنه فى ٢٣ تموز ، هبط من أحد المراكب البخارية فى مرفأ « بتافيا » مرتديا ثياب البحرية الهولندية ، على ظهره حقيبة الجنود ، وعلى كتفيه اشارة فرقته المدفعية البحرية . وانتقل بعد ذلك مع

الفرقة الى « سالاتيفا » ولـكنه سئم الارتباط بتمارين الجندية ومناوراتها ، فاستطاع فى هذه المدينة أن يفـر من الثكنة ، ويبيع ثيابه العسكرية ، ليشترى ثيـابا مدنية عادية .. ومن ثم يضـيع فى الغـابات المحيطة بالمدينة ، ويقول بيرشون : « أن رامبو اضطر الى أن يتحرر من وحشية الجندية وقسوتها ، فالتجأ الى غابة قرب سالاتيفا ، وقضى فيها ليلته الاولى ، فى كهف كان يتردد عليه بعض القردة ، وتعلم منهم كيف يتغذى من ثمار الغابة ، ويحمى نفسـه من الوحوش ، ولاسيما « البوا » خلال اختفائه عن عيون السلطة ، وبعـد شهر خرج من الغابة ممزق الثياب ، فاختلط بالبحارة دون أن يعرفه أحد . وفى اليوم التالى وجد عملا فى باخرة انجليزية ، لشحن السكر فأبحر عليها الى اوربا ، ولـكن عاصـفة هوجاء هبت فى منتصف الرحـلة ، وحطمت صوارى السفينة ، فاضطرت الى السـير فى هدوء ... ومرت بعد أسابيع براس الرجاء الصالح ، ثم تراءت لها جزيرة القديسة هيلانة ، فحاول رامبو اغراء الربان بأن يرسى السـفينة فى هـذه الجزيرة التاريخية « التى أسرت نابليون ذات يوم » ولـكن الربان رفض ، وأصر المغامر على الرسو . وفى غمرة من التحدى رمى رامبو بنفسه فى البحر ، ولم يكن يجيـد السباحة فظن الجميع انه يحاول الانتحار وانقذه احد البحارة

وارتاب الربان فى أمره • لعله هارب من الجنـدية ، ومن اشياع الامبراطورية ، (وكانت فرنسا قد أصبحت جمهورية) فجعل يراقبه فى حذر وحرص • وعندماوصلت الباخرة الى الشاطىء الاوربى كان رامبو أول من هبـط وتوارى عن الانظار • فقد توجه الى « بوردو » ومنها انطلق

الى الآردن سيرا على الاقدام ..

ووصل الى شارلفيل فى اواخر عام ١٨٧٦ . وكانت الثلوج تتساقط على المدينة ، وامام الموقد مرت أمام عينيه مشقته الاولى من اسفاره ، فخيـل اليه انه ما زال فى حلم غريب : الشتاء فى ثلوج الآردن ، والربيع فى حقول هولندا المزدهرة ، والصيف فى غابات جاوه ، والخريف فى عرض البحار ..

ولـكن العالم ما يزال رحيبا واسع الارجاء ، واللهفة الى ارتياده تزداد يوما بعد يوم . فأين يكون ربيع العام الجديد عام ١٨٧٧ ؟ ان الشرق الاقصى قـد خيب ظن هذا الذاهب فى اثر المجهـول ، ولـكن الشرق الاقصى ليس كل الشرق . هناك الشرق القريب ، بلاد الامجاد العريقة ، والحياة المليئة بالاساطير ، بلاد العرب التى تغنى بها فى اشراقاته ذات يوم :

« وبعد ساعة ، هبطت فى ضوضاء ميـدان كبير فى بغداد . كان الصحب ينشدون غبطة الحياة الجديدة »

كادح .. في قبرص

« .. رأيت الشمس على
الارض ملطخة بصوفية مرعبة »

رامبو ـ المركب النشوان

وفى أوائل نيسان غادر رامبو شارلفيل الى المانيا ، بعد ان اقنع امه بأنه ذاهب لاتقان اللغة الالمانية وللعمل . ولكنه ما كاد يدخل الاراضى الالمانية حتى حول وجهة سفره الى فيينا املا فى أن يهبط وادى الدانوب ويصل الى البحر الاسود فآسيا الصغرى . وفى هذه العاصمة المرحة يتفق مع احد سائقى العربات ليحمله الى نهاية وادى الدانوب فى طريقه ، ولكن عصابة من اللصوص تداهمه فى الطريق ، فتسلبه ثيابه وكل ما معه من مال . فيعود ادراجه الى المدينة سيرا على الاقدام ، ويتنقل على ارصفتها يومين كاملين كمتسول ممزق الثياب لا مأوى له . ويحدث أن شرطيا ينهره ، فيتشاجر معه رامبو ويشتمه فتعتقله السلطات النمساوية ، وتضمه خارج الحدود . فيعود الى شارلفيل

ولكنه بعد أيام قليلة ، يعود الى اسفاره . فيذهب الى هولندا ، على قدميه كالعادة ، وينتقل مع فرقة للالعاب البهلوانية الى الدانمارك والسويد ويقضى فصل الصيف فى ستوكهولم . ولكنه لسبب ما ، يتوسط لدى قنصل فرنسا فى هذه المدينة لكى يعيده الى شارلفيل . فيقضى فيها شهر ايلول . ثم تستيقظ فى

نفسه صورة الشرق من جديد ، فيسافر الى مرسيليا ومنها الى الاسكندرية . وفيما هو يتأهب لهبوط وادى النيل تنتابه الحمى ، ويشعر بألم فى أمعـــائه ، ســببه ارهاق نفسه بالمشى • فيعود مريضا الى شارلفيل ، ويقضى فيها الشتاء البارد كعادته • وفى العام التالى ١٨٧٨ يعود الى الاسكندرية من جديد ، ويبحث عن عمل فيها •

« قريبا أحصل على وظيفة جيدة هنا . أما الآن فاننى اشتغل قليلا بما يسد رمقى . وقد أقوم بمشروع زراعى يدر على المال ، أو أعمل فى الجمارك المصرية ـ الانجليزية بمرتب جيد أو أسافر الى قبرص » .

ولــكنهم يشترطون عليه لاعطائه اية وظيفـــة ، أن يقدم شهادة تثبت كفاءته وحسن سلوكه . فيكتب الى أمه طالبا الحصول على وثيقة كهذه •• وأية وثيقة كاذبة • ان رامبو الذى لعن كل شىء فى وطنه يلتمس من هـــذا الوطن شهادة طيبة ! ويبدو ان امه لم تستطع الحصول على ما طلب ، فرحل الى قبرص واستقرت به الحـال فى « لاركانا » المرفأ الرئيسى للجزيرة .

« اشتغل الآن مراقبا فى عمـل تقوم به الحكومة فى الصحراء على ساحل البحر . اشرف على نقل الحجارة على خمس بواخر • وعلى انشاء فرن لصنع الفخار والقرميد

« لا شىء هنا الا سديم من الصـــخور والبحر وبيت واحد . لا ارض ولا بستان ولا شجرة . فى الصيــف تبلغ الحرارة ثمانين درجــة • والآن نحن فى الخمســـين نحن فى الشتاء . الامطار تنهمر احيــانا . وغذاؤنا هو السمانى والدجاج • ان جميع الاوربيـــين هنـــا مرضى سواى • لقد كان عددنا ـ عندما أتينا الى هذه المدينة ـ عشرين أوربيا ، ومات منا أربعة أو ثلاثة •

« العمال القبرصيون يأتون من القرى المجـــاورة . ويعمل معنا منهم ستون عامـــلا فى اليـــوم ، وأنا أدبر شؤونهم : أحدد أيام العمل والاجور ، وأكتب التقـــارير للشركة ، وأنظم حساب الفداء وجميع المصاريف وادفع الاجور بنفسى »

اى عملٍ مدهش لذلك الشاعر الثائر الذى كان يصيح فى وجه أوربا « فى نفسى خوف من جميع المهن ... » أما روعة تلك الاماكن وجمالها الطبيعى الغريب ، وتلك الآفاق الزرقاء المليئة بالاسرار والتى تهمس بألف قصيدة عن جمال الصحراء .. فان رامبو قد أغلق بصره عنها الى الابد . ان رامبو الشاعر قد مات . ولم يبق الا رامبو العامل الذى يقضى طوال النهار فى التفـــكير فى غذاء الكادحين ومشاكلهم ، وفى شحن الحجـــارة فى عرض البحار . اترى رامبو الانسان هو الذى يعيش الآن ! واحد من أولئك الملايين الذين يكسبون رزقهم بالعرق والدم فى جميع أنحاء العـــالم ، والذين يحملون كل ما فى الانسان الحديث من نشاط وعنفوان .

فى احد الايام يفرط احد العمال فى شرب الخمر . ويسرق من خيمة رامبو صندوق النقود . فلم يغضب رامبو ، بل بقى طوال الليل يبحث عن العامل الى أن وجده . وجعل يناشده شرفه ونبـــل نفسه ، أن يعيـــد الصندوق ففعل . وعندما كان العمال يقصرون فى أداء واجبهم كان يصفح عنهم ويواسـيهم . وكثيرا ما كان يشتغل معهم ويعيش كما يعيشون . فهـــل علمتـــه التجربة ما لم تعلمه اياه صفحات الادب والشعر ؟ هل فجرت الحياة فى نفسه ينبوع الحب والحنان فى حين أورثه الادب غرورا وحقدا على الانسانية جمعاء ؟ ..

وبقى صابرا على مشقة الحياة فى قبرص حتى ربيع عام ١٨٧٩ . اذ عادت اليه الحمى القاتلة ، فأبحر الى مرسيليا فى حزيران . ولم يكد يصل الى روش ـ حيث كانت الاسرة ـ حتى أصيب بالتيفوئيد . ولكنه شفي منه بسرعة . وانصرف فى دور النقاهة الى مساعدة الفلاحين فى اعمالهم فى مزارع روش . فكان يشتغل معهم فى فتح الترع وحفر الارض ونقل الحجارة ...

وفى أحد الايام بينما كان فى غرفته طرق باب المنزل، فهرع يفتحه بنفسه .. فاذا هو أمام صديقه « ارنست ديلاهاى » انه اول وجه من الماضى يراه بعد فترة المغامرات هذه . ويصف ديلاهاى هذا اللقاء :

« فتح لى الباب المريض بنفسه . وعندما رآني اشرق بريق الصداقة فى سماته التى أورثتها القساوة ذلك الهم الابدى . ولم اعرف منه لاول وهلة الا عينيه الرائعتي الجمال بلونهما اللازوردى المشرق الذى تحيط به حلقة عميقة من الزرقة . وكانت وجنتاه المتلثتان قد تخددتا وبدت فيهما الصلابة » .

وتعانق الصديقان واستغرقا فى الاحاديث .

كان صوته قد فقد لهجته الصبيانية العصبية التى كنت المسها فيه . وأصبح عميقا أجش ، تشيع فيه عزيمةهادئة،

وتناولا طعام العشاء ، وحدثه ديلاهاى عن الفن والادب، فأجاب بسأم واشمئزاز : « لم أعد أهتم بهذا .. »

وراح يحدثه عن حياته فى قبرص ، عن متاعب العمال ، والصعوبات التى لقيها هناك ، ولكنه كان يبدى حنانا دائما الى العودة ... وقاما بنزهة حول القرية ، فلحظ ديلاهاى ان رامبو أصبح يتأثر بالبرد ، فذكره بنزهاتهما القديمة فى الثلج وبين العواصف الباردة ، اثناء الحرب ، فقال رامبو :

ـ الآن لا استطيع شيئا من هذا . ان مزاجى قد تبدل . انني بحاجة الى المناطق الحارة ، الى سواحل البحر الابيض المتوسط على الاقل .

ولكنه رغم هذا ، فقد قضى الشتاء فى شارلفيل جالسا أمام الموقد يدخن ويحلم . لا كتاب ولا كلمة تسطرها هذه اليد التى ادعت ذات يوم انها خطت لغة جديدة لشعراء العالم ...

ولم تكد تذوب الثلوج عن تلال تلك الارياف ، حتى وثبت الى راسه فكرة الرحيل ، فنظم شؤونه ، وأعد العدة للسفر . وقبيل سفره ، دعاه أحد أصدقائه القدامى ، الى سهرة فى المساء ، مع لفيف من أدباء الناحية ، فى مقهى صغير . فجاء رامبو فى الساعة الثامنة مساء مرتديا ثيابا نظيفة ، هى ثياب السفر ، وجلس بينهم صامتا . ودار حديث بين ارنست ميلو ـ صاحب الدعوة ـ ولوى بريكان ، وهو أحد مترجمى حياة رامبو ـ حول كتب جلبها ميلو من باريس فتدخل رامبو فى الحديث قائلا :

شراء مجموعة من الكتب ، يا لها من اضاعة للمال . انها حماقة تامة ... ان تحمل على ظهرك طينا أجدر من جميع الكتب ، فالطين يفيد فى رأب الجدران المتشققة » .

وطوال السهرة بقى صامتا . وتركهم فى الساعة الحادية عشرة ، ولم يقدر لهم أن يروه بعد ذلك . ففى اليوم التالى أبحر الى الاسكندرية ومنها سافر الى قبرص ، ملتمسا عمله القديم ، ولكنه فوجىء بافلاس الشركة ، واستطاع ان يجد عملا آخر هو الاشراف على بناء قصر لحاكم الجزيرة العام ، على قمة جبل ترودوس . وهو أعلى جبل فى قبرص . ولكن الامطار الغزيرة ، وبرودة الجو ، منعته من الاستمرار فى العمل فعاد الى مصر

الحريم من عدن إلى نساء هرر

«..حقا كنت احلم بعدن، وكم كان
حلمى من صفاء الشعوب القديمة»

رامبو – فصل فى الجحيم

فى ٧ آب عام ١٨٨٠ وصل رامبو الى عدن . وكتب الى امه :

« لقد بحثت عن عمل فى جميع موانىء البحر الاحمر، فى جده ومصوع والحديدة ، واتيت الى هنا لعلى استطيع الذهاب الى الحبشة » .

ولم يطل به عهد البطالة ، اذ ما لبث ان اشتغل فى احدى الشركات التجارية متعهدا لشراء البن بأجر زهيد لا يزيد على خمسة فرنكات فى اليوم . ولكنه كان كعادته يعمل فى نشاط كبير رغم جفاف الجو وازدياد الحرارة ، وصعوبة الحياة فى تلك المدينة .

« ما من شجرة ، حتى ولو شجرة يابسة ، ولا نبتة خضراء ، ولا بقعة من الارض ولا قطرة من الماء العذب . ان عدن هى فوهة بركان خامد مغمور برمال البحر ، لا يرى فيها الا الحمم المنطفئة السوداء ، والمرتفعات تمنع عنا كل نسمة من الهواء . ونحن نذوب من شدة الحرارة ، لاريب اننا من ضحايا القدر الذى قدر لنا أن نشتغل فى هذا المكان الجهنمى » .

ولكن رامبو ، رغم هذا كله ، يلفت نظر «باردى» احد أصحاب الشركة ، بذكائه وحيويته ، فيقرر ارساله الى الحبشة ليستلم فرعا للشركة فيها ، باجر كبير . ان أحلامه فى السفر الى الحبشة تتحقق بأسرع مما يريد ويصل الى هرر فى الشهر الاخير من عام ١٨٨٠

« وصلت الى هذه البلاد بعد عشرين يوما من التنقل على صهوة الجواد قضيتها فى الصحراء الصومالية ، محتميا بالقوافل » .

ذلك ان جميع وسائل النقل الحديثة ، لم تكن قد دخلت تلك الأصقاع بعد . وكانت القوافل نفسها عرضة للصوص المتوحشين . وكانت هرر هذه مدينة من :

« بيوت مبعثرة هنا وهناك بين صخور بركانية ، واجمات خضراء داكنة تطبق عليها زرقة عميقة ، تتحداها رؤوس المآذن البيضاء ، وغير بعيد ، تتفجر مياه « الاوغادن » فى وديان وعرة ، رائعة الجمال » .

واغرته وظيفته الجديدة بالتجارة ، فجعل يتاجر . فكان يبيع الاقمشة ويشترى من أهل البلاد البن والمسك :

« كانت النساء المتحجبات تأتين حاملات حزما من الحطب ، أو أكياسا من الحبوب والبن او جرارا من اللبن ، فأستبدلها لهن بمناديل حريرية أو عقود واقراط من البلور الملون » .

وعندما يأتى المساء ، كان يركب جوادا وينطلق فى نزهات طويلة فى حقول البن الواسعة فى شعاب الاوغادن ، وقرب الشلالات الهائلة ..

أين تنتهى هذه الغابات وتلك الشعاب ، اية أسرار تكمن فى مجاهل افريقيا السوداء .. ؟ الا يستطيع

لانسان أن يضع يده على قلب الطبيعة النابض ، فى هـذا لمتشابك المخيف من الظلال والاغصان ؟ ..

رويدا رويدا ، سئم رامبو التجارة . استيقظت فيه روح المغامرة . ان فى افريقيا مناطق ما تزال مجهولة ، فلماذا لا يكتشفها ؟ .. وفى عام ۱۸۸۱ أرسل الى امه يطلب دليلا عن افريقيا « مصورا دقيقا لها ، وبعض رسائل الرواد عنها » ولـكنها لم تجبه الى طلبـه . وكان شتاء هرر قاسـيا عليـه « أمطار غزيرة وبرد كالوحش » . ولـكنه اضطر الى البقاء فيهـا لانه لا يستطيع أن يخطو خطوة واحـدة فى تلك المناطق من غير دليل ، أو بوصلة على الاقل يعرف بها الجهات .

وفى منتصف نيسان ، مر بالمدينة جماعة من المبشرين فأراد الرحيل معهم ، ولـكن يبدو أنهم لم يقبـلوه . فأقلع عن هذه الفكرة . وفى ٤ ايار كتب الى امه :

« لقد عزمت على الرحيل من المدينة قريبا ، لـكى انطلق فى المجهول . هناك بحيرة تقطع فى أيام ، ومن ثم بلاد العاج التى أحلم بالوصول اليها » .

ولـكن هذا الحلم لم يتحقق فيتـذمر رامبـو من حياته . رغم انه كان قد أصبح ثريا بكل معنى الكلمة . وتجمع لديه ۲٥۰۰ فرنك أرسلها الى أمه كى تحفظها له .

« وا أسفاه ! لم يعد ثمة ما يربطنى بالحياة . لقد اعتدت حيـاة المتـاعب .. ولـكننى اذا رأيت نفسى مضطرا الى الاستمرار فى حيـاة كهذه ، فى احزانى المضطربة التى لا معنى لها .. فى هذا الجو القـاسى ، فانني أخشى ان أرى نفسى مرغما على أن أضع حـدا لحياتى . اما كنا نستطيع أن نتمتع فى أعوام قصـيرة

براحة حقيقية فى هذه الحياة ؟ .. ومن حسن حظنا انها الحياة الوحيدة . وهذا بديهى ما دمنا لا نستطيع ان نتصور حياة أخرى ترهقها آلام أكبر مما يعذبنا فى حياتنا هذه ؟ »

هل تعب هذا المتشرد الجموح الذى حلت عليه اللعنة فى أن لا يتعب أبداً كما قال عنه فيرلين ٠٠ ؟ فهل كان يحلم بالاستقرار ؟ .. أرسلت اليه أمه تستشيره فى شراء أرض له فى الآردن ، فرآها فكرة شيطانية ، « لا تفعلى شيئا من هذا ، ماذا أفعل بالارض ؟ ٠٠ » وتوقظ هذه الفكرة فى نفسه ، كل ما كانت تحمل هذه النفس الثائرة ، من حب للتنقل . فسافر فى اليوم التالى الى عدن لينهى اتفاقيته مع الشركة . انه يريد أن يعود حرا كما كان . المال لم يعد فى حاجة اليه ، فقد استطاع أن يجمع ما يكفيه لارتياد افريقيا كلها .. ويعود الى هرر ، وقد بقيت فى رأسه فكرة الاستكشاف • وخطر له أن يبدأ باصطياد الفيلة حول بحيرات الاوغادن المحاطة بالغابات الكبيرة ، ويتاجر بالعاج . ولكن فكرة الاستكشاف هذه تلح عليه ، ماذا لو أضاف شيئا جديدا الى علم الجغرافيا فى هذه البقاع المهجورة ؟ .. ويكتب الى صديقه ديلاهاى ، عن طريق أمه ، طالبا رأيه :

« لقد عزمت على أن أؤلف كتابا عن هرر والغالاس ، أقدمه للجمعية الجغرافية . لقد بقيت فى هذه المناطق عاما كاملا » ..

ويضع له فى آخر الرسالة قائمة بلوازمه (بوصلة ، ميزان للجو ، ميزان للحرارة ، آلة تصوير ، حبال... الخ) ، ويطلب اليه شراءها واخذ الثمن من المال

المدخر عند والدته . ولكن الام لم توصل الرسالة الى ديلاهاى ، بل احتفظت بها ، وكتبت الى رامبو تؤنبه على « هذه الافكار الحمقاء » وتخبره بأنها قد اشترت الارض قرب « روش » . ثم تكف عن مراسلته . فيضطر الى تجديد العقد مع الشركة ، ويكتب الى أمه من عدن فى أواخر عام ١٨٨٢ .

« ما هكذا تكون مساعدة رجل يبعد آلاف الاميال عن وطنه ، يسافر بين شعوب متوحشة ولا يلتقى رسالة من ذويه . آمل أن تبدلى من رايك . اذا لم اكتب الى اسرتى عن مشاريعى ، فالى أى شيطان أكتب ؟ .. »

وفى مطلع عام ١٨٨٣ يعود الى هرر ويندم على لهجته القاسية مع امه فيرسل اليها ثلاث صور فوتوغرافية له ، احداها أمام منزله فى هرر ، والثانية فى مزرعة للبن ، والثالثة فى بستان من الموز . ويروى الكاتب الفرنسى بول كلوديل ان عينيه اغرورقتا بالدموع عندما شاهد فى هذه الصورة الاخيرة ، رامبو ، وقد لوحت الشمس بشرته ، فأصبح كالسود ، عارى الرأس والقدمين ، وفى ثياب المتشردين ..

وفجأة يسمع رامبو فى هرر باعلان الحرب بين الحبشة والسودان ، ويصبح التنقل خطرا ومستحيلا. ويسود الزعر فى المدينة ، وتقفر الشوارع ، فتمر به أيام من العزلة القاسية أشبه بالسجن . ويتحرك فى نفسه حب الاستقرار والهدوء ، ويحلم بحياة لم تكن تخطر له على بال .

« العزلة فى هذه الارض شىء قاس سىء . اننى آسف

لانني لم اتزوج وانشىء اسرة . الآن قد قضي على أن اتشرد ابدا » .

« وا أسفاه ، ماذا تجدي هـذه الحمى من الذهاب، والاياب ، وهذه المتاعب والمغامرات ، بين أجناس غريبة من البشر ، وهذه اللغات التى أملأ بها ذاكرتي ، وهذه الهموم التى لا سبيل الى التعبير عنها . اما كان يجب بعد اعوام قليلة أن ألتمس الراحة فى مكان أحبه ، وان أكون عائلة لى ، وان يكون لى ابن اكرس بقية حياتي لـكي انشئه حسب أفكاري ، واجهزه باكمل ثقـافة فى هذا العصر ، وان أراه مهندسا مشهورا ، رجلا قديرا غنيا بعلمه . ولـكن من يعرف كم تطول اقامتي فى هذه الجبال ؟ » .

ولـكن هذه العزلة القاسية لم تطل على رامبو . اذ ما يلبث أن يتصل به باردى ، صـديقه الوحيـد من اصحاب الشركة فى عدن ، وخلال احاديث عارضة يبدى رامبو حماسته لاكتشاف المناطق المجهولة فى افريقيا . وكان باردى هذا عضوا فى الجمعية الجغرافية ، وكان يثق برامبو لما شهده من نشاط وذكاء خارق ، خـلال عمله فى الشركة . فكتب الى الجمعية عنه وساعده فى تحقيق مشروعه .

وفى أواخر عام ١٨٨٣ بدأ رامبو رحلته الواقعية فى المجهول ...

من رواد أفريقيا المتوحشة

« فى المساء كانت مياه الغابات
تتوارى فى الرمال العذراء .. »

رامبو ـ الاشراقات

وكانت هـــذه الرحلة الاستكشـــافية فى قافلة من العبيد ، متوجهة من هرر الى مدينة « مومباسا » فى منطقة الاوغادن . وكان رامبو اول أوربى يدخل هـــذه المدينة . وبقى فيها خمسة عشر يوما ، هبط بعـــدها منحدر الشلال الـكبير فى جنـــوب هرر ، متوجهـــا صوب المحيط الهندى . ثم حاذى نهر « ايرر » فنهر « وابى » الذى دخلت معه القافلة قلب الاوغادن ...

« بلاد للرعاة والنساك والقبائل المحاربة ، تكاد أن تكون خالية من القرى ومن الطرقات . صحراء مجهولة بكل معنى الـكلمة » .

وعلى ضفاف « الوابى » فى هـــذه المنطقـــة البكر ، اكتشف رامبو عددا من « حيوانات الانهار الـكبيرة » كما يسميها هو . انواع شتى من الفيـــلة والتماسيح وغيرها وانواع أخرى من الغزلان والزرافات وحمـــار الوحش . وكتب تقريرا مطولا عن الاوغادن الى الجمعية الجغرافية جاء فيه :

« تبدو الاوغادن لأول وهلة ، سهوبا من الاعشـــاب العالية ، تتناثر فيها مناطق حجرية . واشجارها تشبه

اشجار الصحارى الصومالية ، أشجار الميموز والصمغ. وكلمـــا سرنا نحو الجنوب ، وجـــدنا آثار الزراعة . والسكان يزرعون غالبا : الذرة . وســـكان الاوغادن الذين رأيناهم ، طوال ، بشرتهم تميل الى الحمرة أكثر من السواد ، رؤوسهم عارية ، وشـــعرهم قصـــير ، ويلتفون بثياب نظيفة ، ويحملون رماحا مدببـــة » . ويشير فى نهاية التقرير الى انهم « يدينون بالاســـلام . وهم متعصبون . ولـكل قبيلة فيهم امام يرتل الصلاة ، وفى كل مدينة هداة ـ يذكر اللفظ بالعربية ـ يعرفون القرآن جيدا ، وهم غالبا شعراء » .

واجابته الجمعية الجغرافية برسالة شكر « آملة أن يضم الى وثائقه صور الاشخاص الذين كانت لهم جولات فى عالم الاكتشـاف . وطلبت منه صورته وتاريخ ميلاده ونبذة عن حياته وأعماله» ولم يهتم رامبو بهذه الرسالة ، ولم يجب عليها . اية حياة ، واية أعمال ؟.. أيقول لهم انه ولد شاعرا ! وانه جاء الى هـذه المناطق بحثا عن اسرار العالم ، عن اشراق جديد على الارض ؟..

ولـكنه بعد أيام تلقى رسالة من باردى يخبره فيها ان الشركة قد أوقفت نشاطها فى عدن ، والغى فرعها فى هرر ، وان عليه أن يعود الى عدن لتصفية أعماله ..

وكان خلال العودة متعبا ، شاحب الوجه ، ولكن عزيمته لم تعرف الـكلل . ووصل الى عدن وهو فى أشد حالات الملل . لقد اعتبر نفسه فاشـــلا ، لأنه لم يستطع اتمام رحلته . وعاد من جديد الى حياة الفوضى والتشرد فى ميناء عدن :

« اية حياة حزينة أحيا ، فى هـذه الاجواء الرديئة وهذه الظروف الشاذة ؟ أي سأم يتملكنى واية عيشة

حمقاء ؟ .. ماذا أفعل هنا ؟ .. وماذا سأفعل فى مكان آخر ؟ » .

ولكن « باردى » ينقذه فى هذه المرة أيضا ، اذ يستأنف أعمال الشركة على حسابه الخاص ، ويعطى رامبو عملا رئيسيا فيها . ولكن رامبو سرعان ما يمل، ويضطر الى محاربة الضجر بالخمر والتدخين والسهر الطويل ، وحياة العربدة التى كان يحياها فى حانات لندن وباريس والتى كان قد طلقها منذ أن هجر الشعر ...

الطيب الأسود

« اود ان ارى نفسها تنمو مع جسدها ... »

بودلير

وذات يوم يشاهد رامبو فى عدن بصحبة فتاة حبشية ، زعم انه يريد الزواج بها ، وكانت تسكن معه فى المنزل ويقضى معظم أوقاته معها . ولم يكن يتصل بأحد من الاوربيين سوى « فرانسواز غريزار » وهى خادم « باردى » وكانت تزوره فى المنزل لتعطى دروسا فى الفرنسية للفتاة السوداء وقد كتبت فرانسواز هذه عن رامبو فى حياته « العائلية » الجديدة :

« كنت أذهب كل احد بعد الظهر الى منزل السيد رامبو . وكنت أدهش ان يسمح لى بزيارته لانه كان يكره أن يتصل بأى أوربى . كان قليل الكلام ، وكان يبدو لى رحيما الى أبعد حد بهذه المرأة . كان يريد أن يعلمها الفرنسية . وكان يقول لى : انه يريد أن تعاشر المبشرات فى بعثة الاب فرانسوا ، وانه ينوى الزواج بها لانه عازم على الذهاب الى الحبشة وعدم العودة الى فرنسا الا بعد أن يجمع ثروة طائلة . كان يكتب كثيرا ، وكان يقول لى أنه يكتب مؤلفات جديدة (١) ... .

---

(١) فى عام ١٩٤٧ اشارت الصحف الفرنسية الى أنه عثر فى الحبشة

« أما المرأة الحبشية فقد كانت جميلة فاتنة لها وجه وسيم وسمات ناعمة منسجمة ، وكان سوادها خفيفا. وكانت على جانب من الرشاقة . ولا أذكر اسمها ولم تكن تخرج من المنزل الا مساء بصحبة السيد رامبو مرتدية ثيابا أوربية ، أما اثاث المنزل الذى يسكنان فيه فقد كان حسب تقاليد البلاد . وكانت تحب التدخين كثيرا » .

ويبدو ان رامبو كان سريع الملل من هذه الفتاة التى أعادت ثقته بالنساء فترة من الزمن بشكل لم تستطعه الاوربيات ، فلم يأت عام ١٨٨٥ وكان قد مضى على عودته الى عدن عام كامل حتى تخلى عن «عشيقته السوداء» وعاد الى قلقه القديم فى البحث عن مغامرة جديدة .

وكانت فكرة الذهاب الى الحبشة قد اختمرت فى ذهنه . وكانت خطته فى هـذه المرة أن يقوم بتجارة الاسلحة مع ملك «شوا» احدى مقاطعات الحبشة، وكان ملك هذه المقاطعة ، وهو « مينليك » ــ وقد أصبح امبراطور الحبشة فيما بعد ــ يشترى الاسلحة من

= على بعض رسائل أدبية وكتابات نثرية ، وأربعة آلاف بيت من الشعر كتبها رامبو بعد رحيله من اوروبا . وقد علم بعد ذلك ان رامبو لم يكتبه شيئا أدبيا فى الحبشة أو فى عدن ، وكل ما فى الامر انه كتب عدة تقارير للجمعية الجغرافية ، وعدة رسائل الى أمه وأخته وبعض أصدقائه فى فرنسا . لقد كان رامبو وفيا لتجربته الفذة . فمنذ أن شعر انه لم يعد يستطيع آن يمضى فى ترويض الكلمة والتعبير عن المستحيل ــ كما أشار فى كتابه فصل فى الجحيم ــ كف عن كل مايسمى شعرا او كتابة . وعلى الرغم من آن كثيرين يعتبرون هذه الحالة نوعا من المرض انطفأت فيه عبقرية هذا الشعر فانه فى الواقع نموذج رائع للاخلاص فى الادب . لانه منذ ان يشعر الاديب بأنه لا يستطيع أن يأتى بالجديد يكون الاجدر له ان يصمت .

الاوربيين المغامرين ، لتقوية جيشه ، وكان رامبو نموذجا صالحا لهؤلاء المغامرين .

وفيما هو يعد العدة للسفر ، تأتيه رسالة من أمه تدعوه للرجوع الى فرنسا وتلح عليه فى ذلك فيرفض :

« لن أكون فى فرنسا الا رجلا غريبا. ولن أجد شيئا ذا شأن »

لكن الحقيقة غير ذلك . اذ لو عاد لوجد كل شيء لانه فى تلك السنة ١٨٨٥ كان رامبو شغل فرنسا الشاغل ، وكان فيرلين قد نشر كتابه « الشعراء الملعونون » وفيه يشير الى اتجاه رامبو فى الشعر ، ويعتبره مؤسسا للمدرسة الرمزية . فأحدث الكتاب ضجة فى الاوساط الادبية ، كانت عبقرية رامبو محورا لها . ولكن رامبو كان بعيدا عن كل ما يدعى أدبا :

« ان ثمة وسيلة لأن أسافر دون أن أضطر الى العمل لكسب العيش فلن يرانى أحد فى مكان واحد أكثر من شهرين . ان العالم ملىء بالمناطق الرائعة التى لا تكفى حياة ألف رجل مجتمعين لارتيادها . ولكننى من ناحية اخرى لا أستطيع أن أتنقل فقيرا.. اريد أن يكون لدى مال وفير ، وأن أقضى كل عام فى قطرين مختلفين او ثلاثة . وأن أقوم بأعمال مفيدة ذات شأن . ان الحياة فى مكان واحد هى أتعس انواع الحياة » .

هذا هو رامبو « الشاعر » فى الوقت الذى كانت تتحدث عنه فرنسا بأسرها معتبرة اياه معجزة الشعر. رجل مغامر يبحث عن التجربة والمال والسفر الجديد. انسان تافه كل التفاهة فى نظر الشعر والادب . كتب اليه أحد أصدقائه :

« انك تجهل ولا ريب ، وانت ما تزال بعيدا عنا على

قيد الحياة ، انك قد أصبحت فى باريس نوعا من الشخصيات الاسطورية فى بعض الاوساط ، شخصا أعلن موته ولكن كثيرين من الاوفياء لأدبه ما زالوا ينتظرون عودته . وقد نشرت آثارك فى صحف الحى اللاتينى ، وجمعت كتاباتك النثرية وأشعارك فى كتاب(1) وهناك بعض الشبان المتحمسين حاولوا - على سذاجتهم - أن يؤسسوا مذهبا أدبيا من قصيدتك حول الوان الحروف. هذه الزمرة التى تدين لك وتعترف بك معلما لها لا تعرف كيف أصبحت وآمل أن تعود يوما لكى تردها الى الحقيقة » .

ولعل هذه الرسالة ان تكون أبلغ صورة لرامبو ، هذا العبقرى فى الشعر فتى ، والمغامر المادى رجلا . .

(1) مجموعة آثار رامبو التى نشرت ، ولم يزد عليها شىء بصورة اكيدة هى :

اشعار طالب« .. ١٨٧٠ » ، اشعار بوهيمى « ١٨٧٠ » ، الشاعر فى السابعة عشرة «١٨٧١» ، صحارى الحب «١٨٨١» ، الاشراقات «١٨٧٢ - ١٨٧٣ » فصل فى الجحيم«١٨٧٣» وكلها قصائد شعرية ما عدا فصل فى الجحيم وصحارى الحب وما يزيد على النصف من الاشراقات ، وهذه مقطوعات نثرية . اما كتاب « الصيد الروحى » الذى أشار اليه رامبو فى احدى رسائله فيبدو انه ما يزال ضائعا ، لم يعثر عليه بعد وقد أشارت صحيفة الكومبا الفرنسية عام ١٩٤٩ الى أن احد محرريها عثر على هذا الكتاب ولكن الاوساط الادبية كذبت هذا الزعم . وقد فقد من آثار رامبو هذا ذلك عدة قصائد أشار اليها فيرلين ورامبو نفسه هى : عشاق باريس ، موت باريس ، الـ اهرون ، يقظى الليل ، وكرنفال التماثيل .. وقد نشر الكاتب «دى بويماين دى لاكوست» عام ١٩٣٩ ، مجموعة اشعار رامبو مصححا بعض الابيات والكلمات ، فى الطبعات المختلفة لآثار رامبو ، استناداً على مخطوطات الشاعر ..

فى الحبشة صديق الامبراطور

« كنت ارى الذهب وانا اذرف
الدموع ولكنى لم ارو غلتى .. »

رامبو – الاشراقات

« اننى سعيد بمغادرتى هذا الثقب المخيف المسمى عدن ، والذى عرفت فيه العذاب الكثير . حقا اننى مقدم على رحلة رهيبة لأن المسافة من « تاجورا » الى « شوا » تستغرق خمسين يوما على الجواد فى صحارى محرقة ولكن ما يعزى أن مناخ الحبشة معتدل جميل ، فلا برد ولا حر ، والسكان من المسيحيين المضيافين . والحياة بينهم سهلة » .

ولكن أنى له الوصول الى الحبشة والصعوبات تحف به من كل جانب . فى ذلك الحين كانت القبائل المتوحشة من سكان تلك المناطق تغير على القوافل من غير هوادة . وكان الوطنيون فى حرب عوان مع الاوربيين على اثر خرق الانجليز للاتفاقية التى كانوا قد عقدوها مع النجاشى حنا ، امبراطور الحبشة ، حول الاتجار بالعبيد . وكانت الانباء تتوالى الى عدن عن ضحايا هذا العداء : حرق باخرة فرنسية . ذبح قافلة من البيض حول شوا . خطف عدد من السواح واحراق عدد من المبشرين . وزاد من قلق رامبو أن شريكه فى مشروع تجارة الاسلحة « لابوث » عاد الى فرنسا مريضا بالسرطان . كما ان الدليل « سولين » الذى كانوا يعتمدون عليه ، مات فجأة فى عدن .

ولـكن رامبو لم ينثن عن عزمه . فسارت القافلة فى خريف عام ١٨٨٦ مجتازة طريقا جبليا ، اعتبره رامبو أقرب الطرق بين هرر وشوا . وكان السير فى الفجر. ولم يحدث طوال النهار ما يستحق الذكر. وعند المساء نصبت القافلة الخيام واشعلت النار ، وجلس رامبو يسمر مع العبيد ، ولـكنهم فى الساعة الاولى من الليل يفاجئون بأصوات معركة بعيدة يعلو فيها الرصـــاص والصراخ فيقضون الليل ساهرين على بنادقهم ؛ والذعر يسيطرعلى نفوسهم وظل هذا الذعرمهيمناعليهم طوال الرحلة

وبعد شهر وصلت القـافلة الى هرر ـ من المـدن الرئيسية فى الحبشة ـ فنصبت الخيام فى مكان بعيد من المدينة ، لأن الاحباش كانوا يحتفلون بعيـد وطنى ويرقصون حول النار ، وقد خشيت القافلة أن يفتكوا بها . وقبيل الفجر استأنف رامبو السـير . وبعـد ساعات وجد نفسه مع القافلة فى صحراء لا نهاية لها ، ولاَ يبدو بها غير السراب . وكانوا يسـيرون حـذرين خوفا من أن يكونوا قد ضلوا الطريق ، ولكنهم اجتازوا الصحراء خلال أسـابيع طوال ، وصـلوا بعدها الى « فارى » وهى قرية صغيرة قرب شوا ، وقد بقيت القافلة يوما فى هـذه القرية ، استبدلت خـلاله من الاهالى بالاقمشة والعقود الزجاجية بعض الغـذاء . واستأنفت سيرها فى الصباح ، وفى ٧ شبـاط ١٨٨٧ وصلت الى شوا . ولـكن رامبو أصيب بخيبة عندما علم ان الملك لم يكن هناك بل كان فى حرب مع القوات السودانية حول هرر ، وكان قد جعل من « انتوتو » عاصمة له ، وهى التىأصبحت فيما بعد « أديس أبابا » واضطر رامبو الى اتمام السـير الى هـذه المدينـة .

وعندما وصل كان « مينيليك » قد انتصر فى الحرب ، واستطاع أن يضم الى ممتلـكاته هرر والقرى المحيطة بها . ومثل رامبو بين يدى الملك الظافر ..

كان جالسا أمام بيت من القش ، مرتديا ثوبا طويلا من الحرير الاسود وقد لف عنقه بوشاح أبيض يبدى سواد بشرته ولمعانها ، وكان يبـدو بأسـنانه الطويلة الوحشية وعينيه المغبرتين ، صورة للمـكر والخبث ، وعنـدما حادثه رامبـو بشـأن الاسلحة أمر بانزال الصناديق ، وطلب اليه أن يقابله فى اليوم التالى لدفع الثمن . وفى اليوم التالى بدأ يماطل .

« يبدو ان أعمالى قد اصبحت على جانب من الرداءة والسوء ، أخشى أن أعود بخفى حنين » .

وبعد أيام طلب اليه « مينيليك » أن يذهب الى هرر ليتقاضى الثمن هناك من حاكم المدينـة ، وعبثا حاول رامبو الالتجاء الى القنصلية الفرنسية فى عدن للتوسط لدى الحكومة الحبشية . ولكن القنصل أجابه : « انك أقل خسارة من جميـع الفرنسيين الذين تاجروا مع الاحباش » . ويصدع رامبو للامر فيعود الى هرر ... وقد سـلك فى هذه المرة طريقا جديدا أقل خطرا ، اجتاز فيه مناطق غريبـة مليئة بالازهار العجيبـة ، والنباتات المتوحشة ، والمشاهد الصحراوية الرائعة ، يقول جان مارى كارى ـ مترجم رامبو : « كان رامبو يرى جميع هذه الصور الساحرة فى حياد ولا مبالاة ، كان يسحق بقدميه حقول الازهار العجيبـة الالوان ، وقد تجاوزت بروعتها خيـالاته ، واحـلام جميـع البرناسيين . أتراه اشـتهاها عنـدما كانت مجهولة ، واحتقرها بعد أن اصبحت حقيقة تحت لمسه وبصره ؟»

ووصـــــل رامبو الى هرر دون أن يعرف أنه قام أثناء هذه العودة باكتشاف خير في تاريخ الحبشة • لقـد اكتشف طريقـــا آمنا بين هرر وأنتوتو ـ أديس أبابا ـ اذ حول هذا الطريق مد أول خط حديدي في الحبشــــة

وأعجب رامبو بحـــاكم هرر ، الرأس « ماكونن » ، فكان بعكس مينيليك ناعم التقاطيع. ذا عينين مشرقتين مليئتين بالالغاز، ووجه يبدو عليه القلق ، وجسم نحيل، وكان يبدو عليه طابع الرهبان أو الفلاسفة ، ولم يكن في مظهره ما يدل على انه ذلك المحارب الجبـار الذي قهر المغاوير من حامية هرر . ولـكن رامبو على ما يبدو يفشل في مهمته معه أيضا . اذ ما يلبث أن يرســل الى القنصـــل الفرنسي في عدن يشكو امتناع ماكونن عن دفع ثلاثة آلاف تالير ، بقيت من ثمن الاسلحة ...

ويشـــعر رامبو بملل وضيق من جميـــع الاعمـــال التجارية ، فيقرر الاعتزال ونشــدان الراحة ، وقد اصبح باستطاعته أن يسافر الى كل مكان وهو التاجر الثري . فيسـافر في ٢٣ آب الى القاهرة :

« ها أنذا في القاهرة . شعري رمادي مغبر وكياني مشرف على الانهيار ..و..

« انني تعب ، والملل يتملكني حتى الموت • لا عمـــل لي وأخاف أن ينفد ما أملك دون أن أجد عملا . معي الآن ستة عشر الفا من الفرنكات الذهبية ولـكنني لا أستطيع الذهاب الى أوربا لأسباب كثيرة .. أولها ان الشتاء يقتلني وقد اعتدت على حيـاة الاسفار الحرة الطليقة • والان لا رأي لي •• على أن أقضي بقية حيـاتي في غمرة من التعب والاعتزال . وقد اضطر للعودة الى السودان أو الحبشـــة أو بلاد الغرب • وقد أذهب الى

زنجبار ، حيث أستطيع التجوال أو القيام برحلات الى افريقيا ، وقد أذهب الى الصين أو الى اليابان من يعلم ؟ »

ولـكنه ما يلبث أن يعود الى التجارة . فيحاول في هذه المرة أن ينال عطف الملك «مينيليك» فيقدم اليه هدية آلة لسكب الرصـــاص ، وفي نفس الوقت يحاول ان يدفع الحكومة الفرنسية للاتصال بالحبشة لشؤون تجارية ويكتب الى أمه لكي تحـــدث نائب الاردن في هذا الشأن ، ولكي تتفق مع بعض الصـــحف لنشر مقالاته حول هذا الموضوع ولـكن ما من جواب ، حتى اضطر الى العودة الى الحبشة على رأس قافلة مؤلفة من مائة جمل تحمل ثلاثة آلاف بندقية الى ماكونن ، ووصل الى هرر وانشأ مكتبا للتجارة هنـاك ، ولـكن هذه المدينة بدت له الآن موحشة الى ابعد حد ..

« لم أعرف انسانا يتملكه السأم كما يتملكني .. او ليس من البـؤس والتعاسة ان أعيش هـكذا بغـير اسرة ، ودون أي اهتمام فكري ، ضائعا بين عبيد لايريدون تحسين حياتهم ، مرغما على ان أتكلم بالفاظهم وأتناول طعامهم ... واتعس من ذلك ان أصبـح أنا ايضا تافها بعيدا عن كل مجتمع مثقف » .

ولـكن المـكتب الذي انشأه ما لبث لحسن الحظ أن أصبح ملتقى لجميع السواح والمكتشفين الذين كانوا يترددون على تلك المناطق . وكثيراً ما كان رامبو يجتمع معهم، فيتحدثون في سهراتهم عن تقاليـد البـلاد ومن أمور شتى كتب «بوريلي» وهو أحدهم ، في ايلول عام ١٨٨٨ :

« عرفت رامبو لاول مرة في عدن ، وشعرت بميل نحوه . ان طريقته في الحيـــاة التي كان يجدها بعض الناس شـــاذة ، والآخرون اصيـلة ، كانت في الواقع نتيجة لاتصافه بحب الاستقلال وكره المجتمع . لقـد

كان معظم السواح يتوجهون اليه فور وصـــولهم الى الاراضي الافريقية ، لأنه كان يجيد عدة لغات ، ويعرف تلك المناطق معرفة جيدة » .

واستمر رامبو فى عمـــله التجارى هـــذا حتى عام ١٨٩٠ ، فكان يوفد القوافل حاملة البضائع الى أنحاء الحبشة ، ويترقب ايابها بالمال الوفير . وكان قد أنشـــأ منزلا كبيرا فى هرر ، ملأه بالعبيد ، وجعل فيه جنـــاحا خاصا للنساء سماه « الحريم » يضم نساء من جميع الشعوب ، فكان يتصرف وكأنه امير من امراء ألف ليلة وليلة . واصبحت قوافله مع الزمن ، تصل الى جيبوتي وتتاجر مع الاوربيين أنفسهم . وكان مينيليك خـلال هذه المدة قد اصبح امبراطورا بعد أن خلع النجاشى حنا فتقرب اليه رامبو وأصبح صـــديقه الحميم بسبب الهدايا التى كان يقدمها اليه . وكانت ترد اليه الرسائل من « صاحب الجلالة » موشـــاة بخاتمه ، وفى نهايتها تحية ودية الى الصديق الطيب « رامبو » . واستطاع خلال ذلك أن يجمع ما يزيـــد على الاربعين ألفـــا من الفرنكات . وقد شجعه بعض التجار على أن يذهب الى فرنسا ويعرض شيئا من بضائعه الغريبة فى معرض باريس الدولي ، ولـكنه رفض قائلا : « سيكون هـذا فى العام القادم . وفى المعرض القادم أستطيع أن أعرض بعض منتجات هذه البلاد وقد أعرض نفسى » .

وفى صيف عام ١٨٩٠ وكان قد بلغ السادسة والثلاثين من العمر ، تملـكته رغبة فى الاستقرار ، وشعر بحنين للعودة الى وطنه وكتب الى أمه : « هل أستطيع أن أتزوج فى وطنى فى الربيع القادم ؟ أو تعتقـدين أننى أستطيع أن أجد انسانا يرضى بأن يصحبنى فى رحلاتى؟» ولكن القدر لم يمهله لأن يسمع الجواب ..

٢- العـــــودة
أنقـــاض على الشـــاطئ

« ان الجسد لحزين .. »
مالارميه

الجناح يتحطم

« هدت صحتى وكان الهول ياتى . وكنت استغرق فى الرقاد اياماعدة ، وعندما استيقظ كنت استانف الاحلام الحزينة ..»

رامبو — فصل فى الجحيم

« لقد مضت القوافل ، والفندق الرائع بنى على سديم من الجليد فى ظلال القطب » .

حلم عجيب تملك خيال رامبو وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، والشعر طوع بنانه فماذا تراه يفعل اليوم ، وقد أصبح الحلم حقيقة ملء الدم والعصب ؟ لقد مضت القوافل فى الطرقات البعيدة ، لتجتاز مخاطر جديدة ، وتفتح آفاقا مشرقة لم يتردد فيها صدى صوت انسانى ، تاركة هذا المغامر الجبار فى مأوى من الجليد . من صقيع لا نهاية له ، يتبع بنظراته التائهة الحالمة ، انسياب القوافل السحرى على رمال الصحارى دون أن يقوى حتى على كلمة من الشعر يغنى بها أحزان نفسه ... فهل كان يتنبأ بما قدر له من مصير ؟ ..

فى شباط عام ١٨٩١ ، أحس رامبو بآلام قاتلة فى ركبتيه لم يعرف لها سببا ، ما لبثت أن امتدت الى ساقيه ، ومنعته من السير ، وطرحته الفراش وحرمته النوم والطعام . وظن رامبو أنها وعكة بسيطة ، ما تلبث أن تزول فيستأنف أعماله ، ولكن القدر كان أقوى منه ، وحاول أن يظفر على الالم بسلاحه القوى الذى

ظفر به على العالم : التحدى ، فتناول بعض المسكنات ، وحاول ـ رغم مرضه ـ القيام برحلة جديدة الى اى مكان آخر من العالم لكنه لم يستطع السير أكثر من خطوتين متعثرتين ، سقط بعدهما على أرض الغرفة شبه صريع . كتب الى أخته ايزابيل :

« اليك أخيرا ما اعتبره سببا لمرضى . ان البرد فى هرر يستمر من تشرين الثانى الى آذار . وقد اعتدت أن أسير شبه عار ، خلال ذلك ، فلم أكن ارتدى الا سروالا بسيطا وقميصا من القطن . وكنت أسير كل يوم حوالى ١٥ الى ٢٠ كيلومترا على قدمى . عدا الجولات الطويلة التى لا معنى لها ، وأعتقد أن هذا سبب لى مع مرور الزمن آلاما فى شرايين ركبتى ، كان نتيجة للتعب والحر والبرد . وقد بدأت هذه الآلام كضربة خفيفة من مطرقة ، تتوالى فى كل دقيقة . ومن ثم شعرت بجفاف فى مفاصلى ، وتوتر فى أعصاب فخذى ولكننى رغم ذلك كنت أمشى كثيرا واشتغل أكثر من أى وقت آخر ، معتقدا أن ذلك مجرد تأثر بالهواء البارد ... ولكن الالم ازداد وأصبحت أشعر به كمدية تغرس فى ركبتى . كان أمامى عمل كثير كنت مضطرا الى القيام به . فربطت رجلى واستحممت كثيرا بالماء الساخن ولكن بغير فائدة ، ثم فقدت كل شهية للطعام ، واعترانى الهزال

والحقيقة انه اضطر بعد ذلك الى العمل فى مركز تجارته ، مستلقيا على فراش بين صناديق البضائع ، وعندما كان ينتهى من ارسال القوافل كان ينقل الى المنزل ، وهو على هذه الحال ، حتى أصبح من المستحيل عليه الاستمرار فى العمل ...

قافلة إلى الغرب

« عاصفة هبت لتطرد السماء »

رامبو ــ الاشراقات

« وفى نهاية آذار عزمت على الرحيل .. »

ولكن كيف يرحل وهو على هــذه الحال السيئة من المرض والانهيار والى أين يمضى ؟ .. لقد كان لديه فى ذلك الحين حقيبة مليئة بالذهب ، تكفيه أن يقضى بقية أعوام حياته فى دعة وهناء ، فى أى مكان من العالم ، فلم لا يعود الى فرنسا ؟ .. ولـكن هل يعود لـكى يبعث الشفقة فى نفوس أناس لفظهم منذ زمن بعيد ، ولم ينالوا منه غير التحدى والاحتقــار ؟ .. فليترك هرر قبل كل شيء ، هذه المدينة التى كانت ــ على حــد قوله ــ ســببا لـكل آلامه ، وفى نفس الوقت كانت عاصمة مجده وأحلامه .

واعد قافلة العودة ، آخر القوافل . وصــنعوا له محملا وثيرا مغطى بجلد ناعم ، بقى مضطجعا عليه طوال الرحلة . وكان يصحبه فى القافلة ستة عشر من العبيد، وعندما تحــركت القــافلة مبتعدة عن هرر ، بكى رامبو بدموع غزيرة ، وبقى متوجهـــا ببصره صوب منزله الى أن توارى ...

« فى اليوم التالى لمسيرنا ، تقدمت على القافلة عدة

اميال اثناء السير ، وفاجأتني امطار شديدة ، بقيت تحتها ست ساعات متواليات ، دون ان استطيع الحراك ، وكنت فى بقعة من الصحراء قاحلة مخيفة »

واجتازت القافلة منحدرات كثيرة . كان رامبو يشعر خلال اجتيازها بآلام شديدة ... وفى منتصف نيسان هبت عليهم رياح عاصفة ، وامتلأت السماء بالغيوم ، وانهمرت الامطار « كالشلالات الكبيرة على عواصف الرمال » كما يصفها رامبو وزمجرات عاصفة رهيبة رجعت الصحراء صداها عويلا مخيفا وجد رامبو نفسه على أثرها وحيدا ، ضائعا عن القافلة . وقد بقى ثلاثين ساعة بدون غذاء ولا عناية ... وزاد الامر سوءا ، تذمر رجال القافلة وعزمهم على الرجوع ، ولم يستطع رامبو أن يثنيهم عن عزمهم الا بالذهب . وعندما وصل الى زيلع كان فى حالة تشبه الاحتضار . ولم يبق فى هذه المدينة الا أربع ساعات ابحر بعدها فى مركب بخارى الى عدن ، وهو فريسة الحمى والجوع والعطش ، والتجأ فورا الى مستشفى المدينة .

« لقد اصبحت هيكلا ابعث الرعب .. ولم أعد استطيع النوم دقيقة واحدة ... »

وفحصه طبيب انجليزى فى عدن ، فأبدى يأسه من الشفاء ، فعول رامبو على العودة الى وطنه . وفى ٩ ايار كان على ظهر احدى بواخر « الميساجرى » البحرية ومر بمصوع وجدة والاسكندرية وقبرص ، فكأنه فى حلم عجيب من احلام شبابه . السفينة النشوى تعود محطمة الشراع وقد اصبحت انقاضا تلهو بها امواج اليم الزرقاء .

قليلا من دفء الشمس

« وماذا اقول عن اليد الصديقة ؟ »

رامبو ـ فصل فى الجحيم

« ... أواه أيهـا القلب ، انهم
اخوتى ، اولئك المجهولون السود ..
فلواننا نمضى.. فلنذهب.. فلنذهب »

رامبو ـ الاشراقات

وبعد ثلاثة عشر يوما مشحونة بالآلام ، وصـل الى مرسيليا ، وحاول الذهاب فورا الى الأردن ، ولـكن شدة الآلام منعته. فنزل فى مستشفى«الكونسيبسيون» حيث يعلن الاطباء نهائيا حقيقة مرضه .. سرطان فى العظام . ويرون انه لا سبيل الى انقاذ حياته الا ببتر ساقه ...

أى مصير حزين لهذا الرحالة الشرود ؟ لهذا الطائر المتمرد الذى كانت اقوى الاجنحة عاجـزة عن تحقيق أحلامه وما فى صـدره من عنفوان ؟ .. ولـكن رامبو يرفض . الموت خير له وأجدى . ويطلب استدعاء أمه من الأردن ، وكانت قد انتقلت الى « روش » . وأمام هذا الهيكل الفانى تجهش الأم بالبكاء ، وتهتف : لـماذا يارب ؟ .. لقد كانت تنتظر عودته ، منذ زمن طويل ولـكن على غير هذه الحال التى تبعث الرثاء . لقـد

عاد ، بثروة طائلة ، ولكن ثمنها كان غاليا ...

وعبثا حاولت الأم المعذبة أن تشجعه بأحاديثها الطويلة عن ثروته ومستقبله . أما هو ؟ .. « أما أنافليس لى الا البكاء ليل نهار .. اننى رجل ميت .. حياتى قد تدمرت الى الابد .. ان حياتنا فى النهاية ليست الا شقاء ، شقاء لا نهاية له ، لماذا وجدنا اذن ؟ .. »

وكان رامبو قد فقد ساقه مرغما . وعادت أمه يائسة الى الأردن .

ولكن مصيبة جديدة تتوج هذه السلسلة من الكوارث ، تورث المريض ما يشبه الجنون . ان السلطة تعتبره فارا من الجندية لأنه لم يؤد الخدمة العسكرية . ولذلك فان عليه أن يقضى عاما فى السجن عقابا له ، كما تنص قوانين البلاد .

« أى نبأ مخيف هذا ؟ .. السجن ، بعد كل هذا العذاب الذى أعانيه ؟ .. اننى أفضل القبر » ...

ولكنه فى نفس الوقت يبدى مخاوفه فيطلب الى امه وأخته أن تكتما نبأ عودته فكانتا تكتبان اليه بعنوان مستعار لا يذكر فيه اسمه .

وفى أوائل تموز تتحسن صحته بعض التحسن ، فيستطيع المشى بساق خشبية . ولكنه لا يقوى على الخروج . ويقضى النهار متنقلا فى غرفته ، وهو فى أشد حالات اليأس .

« اى هم واى تعب ، وأية احزان ، تملأ نفسى عندما افكر فى أسفارى القديمة ، لكم كنت قويا . أين تلك الرحلات خلال الجبال ، وتلك النزهات ، والصحارى

والانهار ، والبحار ! .. واليوم ليس لى الا وجود العجزة. لقد عدت الى فرنسا فى هذا الصيف لكى أستقر وأتزوج ... وداعا أيها الزواج ... وداعا ايتها الاسرة ، وايها المستقبل ... ان حياتى قد انقضت .. »

ولكنه ما يكاد يشعر بتحسن فى صحته ، حتى يعود الى ثورته وجنونه .. ما الذى يمنعه من السفر ، ولكن الى أين ؟ .. لقد كان هذا السؤال يرهقه فى الماضى ، عندما كان قادرا على السفر الى كل مكان متى شاء .. أما الآن ، فان القدرة هى ما تهمه ... فليجرب الذهاب الى روش ، الى منزل ذويه ؟ ..

وفى ذات صباح غادر المستشفى متوجها الى المحطة ، ويصل الى روش قبيل المساء ، فيطرق باب المنزل فى تأثر وحنين ، وتفتح الباب ايزابيل ، وترتمى بين أحضان أخيها والدموع تملأ عينيها . لكم تغيرت هذه الفتاة ؟ .. لقد تركها رامبو طفلة لم تتجاوز العاشرة ، وها هى ذى الآن امرأة كاملة . وتهرع الأم فيتالى فتضمه الى صدرها فى حنان غير معهود منها . وتهيىء المرأتان « للضيف » الشريد غرفته القديمة ، وتسهران عليه كما لو انه أملهما الوحيد فى الحياة . وتروى ايزابيل ان رامبو تطلع فى دهشة واستنكار الى مظاهر الترف البادية على المنزل فى « روش » وهتف : « أنحن فى فرساى ؟ »

وكان شتاء تلك السنة قاسيا ، لسوء حظ رامبو ، فالثلوج تهطل طوال النهار ، والجليد يغطى الحقول والحدائق ، فكان يرتجف من شدة البرد ، فى أكثر الاوقات رغم دفء المنزل ، لقد كان الداء يبعث فيه من

جديد . وفى كل يوم ، كان رامبو يقوم مع أخته بنزهة قصيرة فى عربة مغطاة . وكان رامبو خلال النزهة يستغرق فى تأمل الشوارع والناس وهو صامت حزين.

وسرعان ما سئم الحياة فى « روش » ولعل ذكرياته الصاخبة كانت تعود الى نفسه ، حاملة آلاف المغامرات باعثة فى كل كيانه ، رغباته القديمة فى الانطلاق . ان المجهول ما زال هدفه ومبرر حياته . ويتملكه أرق مفاجىء يرغمه على أن يقضى الليل ساهرا يناجى أشباح الماضى ، ويتخيل صورا جديدة من المغامرات والاسفار فى مناطق أخرى من العالم ، فى امريكا وآسيا والمحيطات النائية . وكثيرا ما كان يردد أسماء مدن مجهولة . ولم تفارق هرر خياله .. فكان يهتف باسمها فى كل ساعة . لعلها فى نظره نقطة الانطلاق الى جميع أنحاء العالم .

وفى ٢٣ آب عام ١٨٩١ طلع عليه الفجر وهو يقظان يردد : « يجب أن أذهب ! .. » ويتحامل على نفسه ، فيخرج من المنزل بعد أن ينبىء أمه بأنه راحل . وتحاول الأم رده ولكنها لم تستطع ، وتلحق به ايزابيل ولكنها لم تستطع اقناعه بالعودة ، فتضطر الى السفر معه . ويركبان قطار باريس . وكان رامبو طوال الطريق يردد : « أواه ، كم أتعذب ! .. » ثم يستغرق خلال ذلك فى تأمل اشراق الشمس على المنازل والحقول . اية روعة وأى جمال فى أضواء العالم وألوانه الذائبة .

وعندما وصل الى باريس عادت الى ذاكرته تلك الاسطورة التى نسجت حول عبقريته ، فابتسم فى

سخرية وهتف : « حماقة ! .. » ولم يمكث فى العاصمة الصاخبة الا الفترة التى انتقل فيها مع ايزابيل من القطار الى محطة ليون ، حيث توجه الى مرسيليا ... ان رامبو الشاعر قد مات منذ أمد طويل ، رامبو باريس ، وفيرلين وبانفيل مات منطويا على سره ، بعد أن توج بأكاليل المجد . أما الآن ، فان الذى يعيش هو رامبو هرر ، المغامر المجهول الذى يريد العودة الى عاصمة أحلامه ، الى بلاد المعاناة والآفاق الطليقة ...

ووصل الى مرسيليا وهو على شفا الاحتضار . لقد قضى ثلاثين ساعة فى القطار دون توقف . وليس ذلك بالامر الهين على مريض معذب ، محطم الكيان مثله . وكانت ايزابيل صامتة حزينة الى جانبه ، تنظر اليه كأنما هى من عالم آخر .

ومنذ أن وصل الى مرسيليا حاول الذهاب الى الميناء ، للاقلاع فى أول باخرة ... ولكنه شعر بدوار مفاجىء فى رأسه وباعياء فى كل أعضائه ، فالتجأ الى المستشفى ...

وعندما وجد نفسه بين الجدران الاربعة فى غرفة صغيرة من المستشفى وضع رأسه بين يديه وجعل يبكى وهو يهمس : « لقد انتهى كل شىء ... »

النهاية : متى تقلع الباخرة ؟

« والآن .. اثور على الموت ... »

رامبو ــ فصل فى الجحيم

« ولـكنك على الاقل تموت الميتة التى تريد ، زنجيا ابيض ، متوحشا رائع التمدن ... »

لقد كان فيرلين صادقا كل الصـــدق ، عندما رثى صديقه القديم بهذه الـكلمات ، لأن رامبو عندما شعر باقتراب نهايته ، كان يسعى الى ميتة يريدها ... كان يريد أن يموت في بلاد العبيد ، في ركن صامت من قصره الفخم فى هرر ، متوحشا تكمن فى صدره خفقة الانسانية الحقة . ومن أجل الموت الذى يريد ، كان يبغى السفر في هذه المرة . ان مجهولا جديدا قد فتح له ذراعيــه الآن ، هو الموت ..

« اخيرا أيتها النفس العزيزة الشقية ، وا أسفاه ! هل ضاعت منا الابدية ؟ .. »

وفى ٢٢ ايلول عام ١٨٩١ ، كتبت ايزابيـــــل من المستشفى الى أمها : « أما شـــفاؤه فانه لن يشفى أبدا . ان الداء ينتشر فى صلب عظامه ، والسرطان يمتد الى كل جسمه ... »

وكان رامبو قد قضى شهرا وهو يعاني سكرات الموت وكانت ايزابيل تسهر عليه فى حنان لا حد له . وكانت

تكتب الى امها كل يوم عن مراحل مرضه . ولكن الأم لا تجيب . فان كل أحقادها قد انفجرت عليه هـذه المرة لأنه سافر ... وقد تعبت من جنونه وعقوقه . وطلبت من ايزابيل أكثر من مرة ، أن تتركه يموت وحيدا ، وتعود الى الاردن . ولكن ايزابيل أجابتها :

« على ألا أفكر فى هـذه الاوقات فى ترك آرتر .. أن صحته فى تأخر مستمر .. انه يزداد ضعفا يوما بعد يوم .. ولا أريد له الا شيئا واحدا : ميتة هادئة » ..

ولكنها أمنية بعيدة المنال للأخت الطيبة . ذلك ان رامبو كان يصارع الموت فى عنف وتحد .. لم يكن يريد الاستسلام لمشيئة القـدر .. كان فى غرفتـه يصرخ كالوحش الجريح فى قفص ضيق. وكانت ايزابيل تتحمل من تصرفاته ما لا يحتمل ، فتضـطر الى السهر معه حتى الفجر ، وهى تسمع تأوهاته الحزينة . وشتائمه للقدر والأطباء والموت .. وكان يقضى النهار وهو يذرف الدموع ..

« قال لى مرة وهو يرتجف : أأمضى الى القبـر المظلم ، وأنت تسيرين فى نور الشمس الدافىء ؟ .. »

وعبثا كانت ايزابيل تحاول التخفيف من هواجسه وآلامه . لقد كان يموت شيئا فشيئا ورأت ايزابيل ان اللجوء الى الله فى مثل هذه الحالة هو سبيل الخلاص من عذاب الاحتضار ، فحاولت أن تذكر أخاها الفانى بالمسيح ، وحدثته عن عزمها على دعوة قسيس يعترف على يديه ، فرفض فى بادىء الامر ، وجدف على المسيح والله ، ولكنه بعد أيام ، بينما كان يعانى أزمة حادة من شدة الالم ، أبدى رضوخا واستسـلاما ... كتبت

ايزابيل الى أمها :

« الحمد لله ألف مرة .. لقد عرفت يوم الاحد أعمق سعادة فى العالم . ان هذا الذى يموت بقربى ، لم يعد بائسا يستحق الشفقة . انه صالح قديس . بل شهيد مختار .. فى صباح الاحد ، بعد الصلاة ، كان يبدو عليه الهدوء ، وكان بكامل وعيه . وقد دخل عليه أحد القساوسة فى المستشفى ، وطلب اليه الاعتراف .. فاعترف .. وعندما دخلت عليهما بعد الاعتراف كان التأثر يبدو على وجه آرثر . ولكنه لم يبك بعد ذلك على الاطلاق . كان يغمره حزن هادىء لم أعهده فيه من قبل . وكان ينظر الى نظرات غريبة جديدة وقد طلب الى ان أقترب منه . ثم قال لى : « انك من دمى ، فهل تؤمنين ؟ أجيبى : هل تؤمنين ؟ .. » فقلت : اجل ، أؤمن .. وكثيرون ممن هم أكثر علما منى آمنوا ، ويؤمنون .. فقال لى فى مرارة : « أجل ، انهم يقولون بأنهم آمنوا ، لكى يعرف الناس عنهم ذلك ، انها مجرد أقوال » . فتلكأت فى الجواب ثم قلت : لا .. انهم يربحون أكثر لو جدفوا .. وكان ينظر الى بعينيه السماويتين واقترب منى وعانقنى قائلا : « ما دام لنا دم واحد ، فان روحنا يمكن أن تكون واحدة أيضا » .

« ومنذ ذلك الوقت ، لم يذكر كلمة تجديف على الله وعلى المسيح . بل كان يضم يديه ويصلى ... رامبو كان يصلى ... »

وفى الايام التالية فقد رامبو قدرته على الحركة وأصبح لا يستطيع النوم من شدة الألم . وتغلغل الداء فى كل جوارحه ولكنه بقى محتفظا بتوقد عينيه وقوة

ذاكرته ، وسرعة خاطره . واضطر الاطباء الى حقنه مرارا بالمورفين ، لكي يتاح له النوم ، ومن العجيب ان المورفين أيقظ فيه كل ما تضم اغوار نفسه من احلام واخيلة ومشاعر غنية ، وكان يلجأ الى المخدرات فيما مضى ، للشعور بها . واصبح ينادي أثناء الرقاد بصوت ناعم عميق كأنه صادر من غابة سحيقة ، وعندما يستيقظ كان يبدو انه يعيش فى غمرة حلم دائم - كما تقول ايزابيل - وكان يتحدث عن أشياء غريبة غامضة ، بصوت حنون ساحر ، ينفذ الى اعماق قلبى ...

أتراه قد وضع قدميه فى عالم المجهول ، فى أرض لم يقدر له ارتيادها فى الحياة ؟ .. وهل كان يترنم بأشعار سحرية الالفاظ ، باللغة التي حلم باختراعها ، بأسرار ذلك العالم اللانهائي الذى يقف الآن على عتبته ؟ ..

وكان يستيقظ فى بعض الاحيان فيلتفت حوله فى ذهول ويهتف باسم « جامى » - وهو خادمه فى هرر - او يغمغم بألفاظ لا يفهم منها الا « ذات العينين البنفسجيتين » أو يردد بلهجة عربية : « الله كريم » اللفظة التي كان يسمعها من مسلمى هرر ، أو يمد يده فى رشاقة صوب الجنوب ، كمن يتبع ببصره مسير قافلة تغيب فى الصحراء ، من غير عودة ...

(*) ان قصة ايمان رامبو قبيل موته ، ماتزال موضع شك الكثيرين من مترجمى حياته. وهؤلاء يعتبرون ما كتبته ايزابيل من هذا الايمان ، نوعا من الرواية الخيالية ، التى نسجتها هذه الاخت « المتدينة » انقاذا لسمعة « الاسرة » على حد تعبير بعضهم . والحقيقة ان ما من أحد ، من الذين عرفوا رامبو فى حياته ، وكتبوا عنه ، أشار الى عودة هذا الشاعر الثائر على الدين ، الى حظيرة المسيحية ا. كما أن مراحل حياته المتمردة وطباعه العنيفة ، مما يزيد فى الاعتقاد بأن قصة ايمانه لم تكن الا أسطورة ..

هل تتاح له العودة الى تلك البلاد المشرقة ؟.. ان الحلم ما زال يراود نفسه . لقد كان جسده أضعف من عنفوان نفسه . لقد حطمه هذا العنفوان ، ولكنه ما زال يتحدى ويريد السفر ..

الرحيل .. بضوضاء جديدة .. واحساس بكر .. كما جاء فى الاشراقات ..

وفى صباح ٩ تشرين الثانى عام ١٨٩١ ، وكان رامبو قد أتم السابعة والثلاثين من عمره ، طلب من ايزابيل ان تأتى بقلم وورقة ، وأملى عليها الرسالة القصيرة التالية :

« اخبرنى ، فى اية ساعة يجب أن اكون فى الميناء .. » لقد كانت رسالة الى ربان احدى البواخر ، يطلب اليه اخباره عن موعد اقلاع الباخرة واستغرق رامبو فى غيبوبة لم يستيقظ منها ، الى أن لفظ أنفاسه الاخيرة ، فى الساعات الاولى من صباح اليوم التالى ...

ونقل جثمان رامبو الى شارلفيل ..

وشهد المارة فى الشارع الرئيسى ، فى كثير من الدهشة والشفقة ، موكبا صغيراً لجنازة متواضعة لم يكن يمشى فيها الا امرأتان متشحتان بالسواد : فيتالى كويف وايزابيل رامبو ...

فهرس

رامبو المغامر

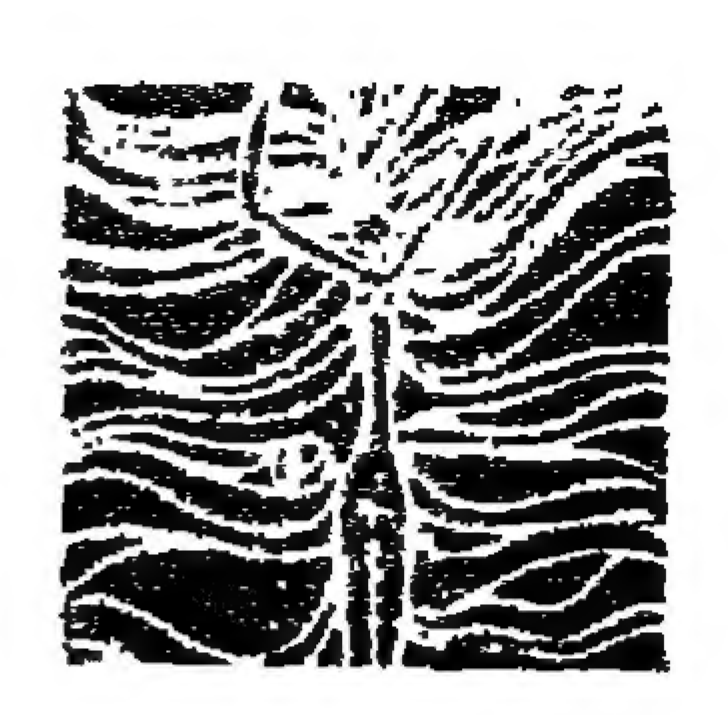
وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406.
Sao Paulo, BRASIL.



هذا الكتاب

رامبو .. شاعر لامع من شعراء فرنسا فى القرن الماضى ، وقد استطاع هذا الشاعر ان يتجاوز حدود الادب الفرنسى ليصبح واحدا من أكبر شعراء العالم فى العصر الحديث ، حيث ترجمت أشعاره الى اكثر لغات العالم الحية وقراها الملايين فى كل مكان بحب واعجاب . انه شاعر يجمع بين العذوبة والعمق والرمز والتصوف ، وقد استطاع رامبو بعبقريته الشعرية أن يكون زعيما لمدرسة فنية كبيرة فى الشعر الفرنسى والشعر العالمى ، وهى المدرسة التى يشرح لنا هذا الكتاب اصولها وعناصرها المختلفة ... على ان رامبو لم يلفت نظر الاوساط الادبية فى العالم كله بشعره فقط ، بل لقد كانت حياته مصدرا من مصادر الدهشة احاطت بهذا الشاعر خلال عمره القصير .. كانت حياته مليئة بالمغامرة والصعلكة والشذوذ والارتحال الدائم من اجل هدف مجهول .. ولاشك ان حياة رامبو هى قصة من أعجب القصص الواقعية التى عاشها الادباء على مر التاريخ . وهذا الكتاب عن « رامبو » هو اول كتاب فى اللغة العربية يتناول هذا الفنان الشاذ ويقدم قصة حياته الغريبة .. وفى اسلوب بسيط رقيق عذب شديد الوضوح والجمال يتناول الكاتب العربى السورى المعروف مصطفى اسماعيل حياة رامبو وشعره .. ولاشك ان هذا الكتاب يقدم نموذجا حيا للنقد الادبى عندما يتحول الى فن جميل على يد الناقد الحساس . ان فى هذا الكتاب مع غزارة المادة العلمية وعمق التفسير النقدى ومتعة العرض الفنى مايجعل منه كتابا فريدا

* الناشر